سورة قريش

مكية وهي خمس آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة لها اسمان: أحدهما "قريش"، كما ورد لها في الحديث اسم آخر وهو "إيلاف". (البخاري، كتاب التفسير)

إنها سورة مكيّة عند المستشرقين (تفسير القرآن لـ"ويري")، وروي عن ابن عباس أنها مكيّة أيضًا، لكنها مدَنيّة عند الضحاك والكلبي (فتح البيان)، وحيث إنهما ليسا من الصحابة، بل من التابعين، فهي عندي مكية، لأن رواية الصحابي أصحّ من غيره، فمَن عاصر الرسولَ ﷺ أقدرُ على بيان تاريخ تلك الفترة، ولا قيمة لرواية الذين أتوا فيما بعد مقابل قوله، إلا أن يكون هناك دليل. وقد اتفق باقي المفسرين مع رواية ابن عباس ﷺ. وعامة المستشرقين أيضا يعتبرون هذه السورة مكية، بل يراها بعضهم من أوائل السور نزولا؛ فالمستشرق "نولدكه" الألماني يرى أنها مكية وأنها من أوائل السور، حيث تزامن نزولها مع سورة الفيل. والقسيس "ويري" أيضا اعتبرها مكية. (تفسير القرآن لـ "ويري")

والفرق بين ما يقوله المفسرون والمستشرقون بهذا الشأن هو أن المفسرين يبنون رأيهم على الرواية، أما المستشرقون فيبنون رأيهم على مضامين السورة ونصها بدلاً من الرواية، مع أن الحق أنهم لا يدركون مفاهيم القرآن الكريم إدراكا سليما، كما ليست عندهم معرفة كافية بالعربية حتى يتوصلوا إلى نتائج صحيحة نظرًا إلى نص السورة. يُعتبر "مارجوليت" من كبار المستشرقين، وهو بروفيسور في العربية والتاريخ، ولا سيما تاريخ الإسلام، وقد ألف سيرة للرسول ﷺ، وقد ادعى بمهارته بالتكلم بالعربية. وخلال زيارتي للندن أجبره شبابنا على التحدث بالعربية، ورغم أنهم لم يعيشوا في البلاد العربية و لم يكن عندهم مهارة بالحديث بالعربية، إلا أن

"مارجوليت" الذي كان قد عاش في مصر سنوات عديدة قال لهم بعد بضع جمل: إنني لا أستطيع الحديث بالعربية. فالواقع أن المستشرقين لا يعلمون من العربية إلا قليلا، وكل ما في الأمر أنهم قد قاموا بالبحث في مواضيع معينة، وقد نجحوا فعلاً في استنتاج بعض الأمور النافعة في بعض القضايا، ولو أردنا جمع تلك الأمور والمعلومات من المصادر العربية لاستطعنا ذلك، ولكن سنضطر لمطالعة الكثير من الكتب، وبوقت كثير. على أية حال؛ إن معرفتهم وإلمامهم بالعربية ضئيل جدًا، وادعاءهم بأن تلك السورة مكية وهذه مدنية بناءً على النظر في نصوصها وأسلوبها ادعاءٌ باطل. أما ترتيبهم للآيات والسور نظرًا إلى الأحداث التاريخية فليس غرضه إلا الهجوم على ديننا؛ إذ يعنون به أن القرآن الكريم نزل بحسب الزمن؛ بمعنى أن أحكام القرآن تغيرت بتغير الظروف والزمن. لا شك أن الله تعالى قد أنزل أحكام القرآن الكريم نظرًا إلى الأحداث، لكنا نقول أيضا بأن الله تعالى كان سيُنزل هذه الأحكام حتما وإن لم تقع تلك الأحداث؛ لأنها لا تخص أهل مكة أو أهل المدينة، بل هي للعالم أجمع. أما المستشرقون فيقولون إن الأحداث المذكورة في سورة ما توافق الفترة المكية أو المدنية، لذا فهي مكية أو مدَنية. ولما كانت الدنيا تهاب هؤلاء المستشرقين فنضطر للحديث عنهم، وحيث إن أهل هذا العصر أكثر اهتماما بأقوالهم، فنستدل بما كان مفيدا منها.

لا شك أن مضامين السورة أيضا تدل على أنها مكية أو مدنية أحيانا، لكنها ليست دليلا في كل الأحوال. أما هذه السورة فأرى أن مضمونها أيضا يدل على أنها مكية، ذلك أن الله تعالى كان قد وعد بحماية مكة من أي هجوم ما دام النبي ﷺ فيها، أما بعد هجرته إلى المدينة فأخذت النبوءات الإلهية نفسها تعلن أن الله تعالى سيجعله ﷺ يدخل مكة فاتحًا، لذلك نجد الأحداث المتعلقة بمكة تتفق مع الفترة قبل الهجرة.

لقد سبق أن قلتُ مرارًا إن السور الواردة في الجزء الثلاثين من القرآن تتحدث بالتناوب عن بداية الإسلام والزمن الأخير؛ بمعنى أن إحداها تتحدث عن الزمن

الأول للإسلام، والأخرى تتحدث عن الزمن الأخير له، وإن سورة قريش تتعلق بالزمن الأول للإسلام، أما سورة الفيل فتتعلق بالزمن الأخير له.

إن أول ما يربط هذه السورة بسابقتها هو أن الله تعالى قد بيّن في سورة الفيل كيف أنه تعالى قد قام بحماية الكعبة وأنه سوف يحميها مستقبلا أيضا. لا شك أن العالم لم يرَ بعدُ تحقق هذه النبوءة المستقبلية عن حماية الكعبة، وإنما يراها في وقتها إن شاء الله، ولكن أهل مكة قد رأوا بأم أعينهم الآية التي ظهرت في زمنهم، وإليها يشير الله تعالى هنا في سورة قريش ويخبر أن أهل مكة أكثر اهتمامًا بدنياهم من الله تعالى رغم رؤية هذه الآية العظيمة، مع أن المفروض أن يوقنوا بعدها أن الله تعالى حافظٌ وناصرٌ للذين ينتمون للكعبة ويقومون بخدمتها بصدق، وبالتالي كان عليهم أن يقللوا من اهتمامهم بالدنيا، ولكن المؤسف أن سيرهم تدل على عكس ذلك.

والعلاقة الثانية لهذه السورة بالتي قبلها تكمن في أن الله تعالى قد بيّن في سورة الفيل مصير أعداء الكعبة، أما في هذه السورة فأخبر عن مصير الذين يحبون الكعبة ويعظمونها، وبتعبير آخر إنه تعالى قد بيّن في السورة السابقة عاقبة أعدائه وفي هذه السورة أخبر عن معاملته مع أوليائه وإحسانه إليهم، رغم وجود بعض التقصيرات فيهم.

لقد بينتُ من قبل أن ما حدث بأبرهة وجنوده لم يكن صدفة، وإن ورود هاتين السورتين بهذا الترتيب يؤكد قولي هذا؛ ذلك أن من القواعد المسلَّم بها أنه إذا ذُكر الشيء بجهتيه كلتيهما وكان مكتملاً من الجهتين فمن المحال أن يُعتبر صدفةً. ولما كان واردًا أن يقال عن حادث أصحاب الفيل أنه صدفة، فأردف الله تعالى بعد سورة الفيل بسورة إيلاف دفعًا لهذا الاحتمال. لقد بين الله تعالى في سورة الفيل جزاء الذين يعادون الكعبة، أما في سورة قريش فبيّن فيها جزاء الذين يوالون الكعبة، فإذا كان الله تعالى قد صبَّ الخزي والذل على أعداء الكعبة، فإنه تعالى قد أنعم على أوليائها، وكل عاقل يدرك برؤية هاتين المعاملتين المختلفتين أن ذلك الحادث لم يكن صدفة، وإنما كان قدرًا مقدورًا من عند الله تعالى. فمَسّاحُ الأراضي مثلاً عندما يريد تحديد أراضي الناس يضع علامة بارزة ويقوم بمسح الأرض من

هناك، ثم يضع علامة أخرى ويمسح الأرض، فإذا تطابقت المساحتان لم يبق هنالك أي احتمال للخطأ في تحديد تلك القطعة من الأرض، بل يكون هناك اطمئنان تام بأن تحديد تلك القطعة تم على ما يرام تماما. كذلك تمامًا قد ذكر الله تعالى في إحدى هاتين السورتين معاملته مع أعداء الكعبة، وبيّن في الثانية معاملته مع أوليائها، وهكذا تبين أن ما فُعل بالأعداء كان بإرادته تعالى، وما فُعل بالأولياء أيضا كان بإرادته تعالى، وبالتالي ثبت أن دمار أعداء الكعبة لم يكن صدفة؛ تماما كما أنه إذا تطابقت مساحة قطعتي الأرض اللتين يقوم بهما المساح تبينَ أن تحديد المساحة دقيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿٢﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

لإيلاف: اللام في ﴿لِإِيلَافِ﴾ تدل أن متعلقها محذوف، ذلك أن الجمل في العربية لا تبدأ بالحروف، بل بالفعل أو بالاسم، فيقولون مثلا: ذهب زيد، أو زيد ذاهب، والجملة التي تبدأ بالاسم تتركب من المبتدأ والخبر، والتي تبدأ بالفعل تتركب من الفعل والفاعل. فكل مَن عنده إلمام بسيط بالعربية يعلم أن هناك متعلقا محذوفا لقوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾، إذ لم يبدأ بالفعل ولا بالاسم، ومثاله قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾، فهو يبدأ بحرف الباء، لذا لا بد من محذوف متعلق به، وهو أقرأُ أو أشرعُ أو اقرأْ أو اشرعْ (تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٩). وبالمثل فهناك محذوف متعلق بـ"إيلاف".

ولو قال قائل كيف عرفتَ أن هناك محذوفا، ولماذا لا نعتبر قولك مجرد ظنّ؟ قلنا ليس الأمر ظنًّا ولا تخمينا، بل هناك قاعدة قد وضعها العرب نعرف بها أن هناك محذوفا أم لا، فمثلاً لو ذهبتَ إلى محطة التلغراف لإرسال برقية، وسمعتَ صوت

"تَكْ تَكْ"، وسألت العاملين هناك، كيف عرفتم أن هذا هو المراد من هذا الصوت، فسيقولون لك إن المخترع قد جعل شيفرات وبها نعرف أن هذا الصوت يعني "أ"، وهذا يعني "ب"، وهذا يعني "ج". كذلك هناك قواعد وُضعت في اللغة العربية نعرف بها أنه إذا بدأت جملة بحرف الباء أو اللام مثلاً فلا بد من محذوف متعلق به، وقد يكون هناك أكثر من محذوف في بعض الأحيان، ولكن من المحال أن تبدأ جملة بحرف ثم لا يكون لها متعلق محذوف. فحرف اللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بيّن أن هناك محذوفا متعلقا به.

أما ما هو المحذوف هنا، فهناك أقوال مختلفة، ولكنها لا تعني اختلافًا حقيقيا، بل كل تلك الأقوال تنطبق هنا وكلها صحيحة. علمًا أن اختلاف الآراء في تحديد المحذوف لا يعني أن أحدها صحيح والباقية باطلة، كلا، بل إذا كان انطباق كل المعاني المختلفة ممكنًا فسوف نسلم بها كلها وإن كانت ثلاثة أو أربعة، كل ما في الأمر أننا نقول إن تفكير هذا النحوي مال إلى هذا المعنى وأن تفكير الآخر مال إلى ذاك.

لقد اختلف النحاة البصْريون عن الكوفيين في تحديد المحذوف هنا. علمًا أنه كانت هناك مدرستان كبيرتان للنحو؛ بصْرية وكوفية. إن نحاة هاتين المدينتين اختلفوا في قواعدهم، وبالتالي اختلفوا في استخراج المسائل النحوية أيضًا. إن معظم أهل الهند يتبعون الكوفيين في الفقه.. أعني أنهم يتبعون الإمام أبا حنيفة الكوفي، ولكن فيما يتعلق بالنحو فإنهم يتبعون البصْريين أكثر. أما مصر والشام فمعظم أهلها يتبعون النحاة الكوفيين، مع أنهم يتبعون الفقه الشافعي. هذا الاختلاف يوجد في كل مكان في الهند وخارجها؛ فبعضهم يتمسكون بآراء مدرسة، وغيرهم يتمسكون بآراء مدرسة أخرى.

المحذوف الأول: بعد هذا التمهيد أودّ أن أبيّن أن البصريين يرون أن المحذوف المتعلق باللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ﴾ هو ما ورد في آخر السورة السابقة، والتقدير عندهم: "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ" (جامع البيان للطبري).

وهناك سؤال ينشأ عن هذا التقدير وهو: أَحَمى اللهُ الكعبة مِن أجلها هي أم من أجل إيلاف قريش؟ ألم يكن الله تعالى ليُهلك أصحاب الفيل لولا إيلاف قريش؟ ولو أهلكهم، والحال هذه، فكيف يعتبر هلاكهم منّةً على قريش؟ إذن، فقول البصريين يؤدي إلى تناقض في الظاهر؛ إذ أخبر الله تعالى في السورة السابقة بأنه أهلك أصحاب الفيل إرساءً لتعظيم الكعبة، بينما قال هنا إنه أهلكهم إيلافًا لقريش. بل إن هذا الاعتراض يتقوّى أكثر في بادئ الرأي إذا أخذنا في الحسبان المفهوم الذي بينتُه؛ إذ قلت إن الله تعالى لم يهلك أصحاب الفيل تعظيمًا للكعبة فقط، بل لإرساء عظمة محمد ﷺ أيضًا، مما يعني أنه كان مِن قبل سببان لإهلاك أصحاب الفيل: تعظيم الكعبة وإيلاف قريش، فأضفتُ إليهما سببا ثالثا، وهو الأهم والأولى عندي.

لكن الحقيقة أن المعنى الذي بينتُه لا يدعم هذا الاعتراض بل يهدمه، ذلك أنني كنت ذكرتُ سببين لهلاك أصحاب الفيل، وقلت إن السورة السابقة تتحدث عن تعظيم محمد ﷺ وتعظيم الكعبة، فما دام تعدُّد الأسباب جائزا، وما دام ممكنًا أن يكون لفعل واحد سببانِ، فما المانع أن يكون له سبب ثالث أيضا. فمثلا لو سافرتَ من مدينة "لائلبور" إلى "راولبندي" لشراء أغراض، ثم فكّرتَ بأنك لو ذهبت من راولبندي إلى بيشاور لحقّقتَ هدفين: شراء حاجاتك، وزيارة أقاربك الموجودين هنالك أيضا، فلا بأس في ذلك. فثبت أن تعدُّد الأغراض من عمل واحد ممكنٌ تماما، وبالمثل قد أراد الله تعالى بإبادة أصحاب الفيل هدفين: تعظيمَ الكعبة وإرساءَ عظمة محمد ﷺ أيضا، بل الحق أن الهدف الثاني هو الأَولى عندي. والآن قد ذكر الله تعالى في سورة قريش هدفًا ثالثا لإهلاكهم، ولا اعتراض على ذلك، فكما أن السفر الواحد يمكن أن يحقق غرضين بل ثلاثة: كالقيام بشراءٍ وزيارة أقاربٍ ولقاء صديق، كذلك تماما يمكن أن يكون وراء إهلاك أصحاب الفيل ثلاثة أهداف. إذا كان تعدُّد الأغراض جائزًا بل مستحسن في الأمور الدنيوية، فلماذا لا يجوز في أفعال الله تعالى؟

إذًا، فلا اعتراض على المعنى الذي ذكره البصْريون لقوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾؛ فيمكن أن يكون "إيلاف قريش" هدفًا إضافيا إلى الهدفين المذكورين في سورة الفيل؛ حيث أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الهدف أيضا كان وراء إهلاكهم.

ومن الناس من يعترض على تعدد الأغراض بشكل فلسفي قائلا: إذا كان لفعلٍ واحدٍ أهدافٌ شتى فلا بد أن يكون بعضها أهمّ من الآخر، وبالتالي تصبح الأهداف الأخرى ضمنية و لم يعُدْ أيٌّ منها مقصودا بحد ذاته.

ليكنْ معلوما أن الفلسفة المحضة هي لغو لا طائل منه، ونظرية بحتة تُذكر في الكتب ولا علاقة لها بواقع الحياة. علينا ألا نرى ما يقوله الفيلسوف، بل ما يفعله الناس على أرض الواقع. لو قال المتمسك بهذه الفلسفة لشخص متزوج: لقد كنت تقول من قبل بأنك ستتزوج لكي يكون لك أولاد، والآن تقول إن الزواج سوف يريحك من إعداد الطعام، فيجب أن يكون وراء زواجك هدف واحد لا هدفان! فبماذا سيردّ عليه يا ترى؟ سيعتبره مجنونا بالتأكيد. بل الواقع أن هناك هدفا ثالثا للزواج، وهو التقوى؛ لأن كل إنسان مزوَّدٌ بالقوة الشهوانية، والزواج يحقّق هذا الهدف أيضا. بل هناك أهداف أخرى للزواج، إذ قد يقول بعض أصحاب الطبائع المعوجة: ليس في بيتنا شخص متعلم، فلنزوّجْ ابنَنا من فتاة متعلمة لتكون سببًا لانتشار العلم في عائلتنا. وهكذا ترى أن الزواج يحقق أهدافًا كثيرة، ولا يعترض على ذلك أحد قائلا: كيف يقول الناس إن الزواج يحقق ثلاثة أهداف أو أربعة، فهذا ليس صحيحا، إذ ليس للزواج إلا هدف واحد فقط.

فباطلٌ قول الفيلسوف بأنه إذا كان لفعلٍ أغراض عدّة، فلا بد أن يكون أهمها هو الغرض الحقيقي وتصبح الأخرى ضمنية لا قيمة لها! الحق أن معرفة الحقائق يتم بامتزاج من علم النفس والفلسفة، وليس بالفلسفة وحدها. ولو قمنا بتحليل كل الأمور بفلسفة محضة لأصبح هذا العالم وهمًا كله. الواقع أنه من الممكن أن يقوم المرء بعملٍ لغرض واحد فقط، كما يمكن أن يستهدف من عمله الواحد أغراضًا عديدة؛ قد تكون كلها ذات أهمية واحدة، وقد تتفاوت أهميتها، ثم من الممكن ألا

يقوم به إذا كان وراءه أهداف ذات أهمية ثانوية، ومن الممكن أيضا أن يقوم به من أجلها فقط. بوسعنا أن نقول إن هذا الهدف أهم من ذاك، غير أننا لا نستطيع القول إن تعدد الأهداف غير جائز، لأن هذا خلافٌ للفطرة الإنسانية، وخلافٌ للواقع، ثم هو خلافٌ لصفات الله تعالى أيضًا، لأن الله تعالى قد خلق فطرة الإنسان مماثلة لصفاته ﷻ. ويمكن أن ندرك قياسًا على فطرتنا أن صفات الله تعالى أيضا تعمل على هذا المنوال، كما يمكن أن نتوصل إلى هذه النتيجة بالتدبر في صفات الله تعالى وحدها.

ويقول بعض المعترضين: لنفترضْ أن لعملٍ ما هدفا واحدا، فهل كان صاحبه سيقوم به أم لا؟ ونحن نقول: بل سيفعله حتمًا. فيقول المعترض: فلماذا يقال أن لعمله أهدافا أخرى؟ فنردّ عليه: إن صاحب الفعل هو الذي يقرر الغرض وراء فعله، فإذا هو قال إنه قام به لهدفين، وكانا هدفين معقولين، فلا بد من التسليم بقوله، ومَن اعترض على ذلك عُدَّ من الأغبياء؛ إذ لا يحق لنا أن نقول: إن هذا هو الهدف الحقيقي وراء فعله، أما الأهداف الأخرى فهي باطلة!

بعد فهم هذا التمهيد الذي قمتُ به، سيسهل علينا إدراك أنه قد كان لهلاك أصحاب الفيل الأغراضُ الثلاثة المذكورة، وباطلٌ قولهم: إذا كان الله تعالى قد أهلكهم إرساءً لتعظيم محمد ﷺ أو إنقاذًا للكعبة، فلماذا قال هنا إنه فعل ذلك لإيلاف قريش؟ وباطلٌ قولهم أنه ما دام وراء دمارهم الأغراض الثلاثة فلا بد أن يذكرها الله تعالى كلها: أعني إرساء تعظيم محمد ﷺ، وتوطيد عظمة الكعبة، وتذكير قريش بمنّته العظيمة عليهم.

إضافةً لما تقدّمَ، أقول بأن كل عمل يمكن أن يتمّ بأكثر من طريق، فمثلاً يمكن أن يتمّ بطريق يحقّق هدفًا، أو بطريق آخر يحقّق هدفين، أو بطريق يحقّق ثلاثة أهداف، فلو تمّ بالطريق الثاني عُلم أن وراءه هدفين، ولو تم بالطريق الثالث عُلم أن وراءه ثلاثة أهداف. لقد بينتُ من قبل بالتفصيل أن القضاء على أبرهة وجنودِه وحُكمِه لم يكن إرساءً لتعظيم الكعبة وحمايتها فقط، فالدمار الذي حلّ بهم كان أكبر مما يمكن به حمايةُ الكعبة، مما يدل على أنه كان وراء دمارهم أغراض أخرى.

فمثلاً لو مات بعض جنود أبرهة وهرب الآخرون خائفين لتمّت حماية الكعبة ونجت من هجومهم، أما إذا لم يتم القضاء على الحكومة المسيحية في اليمن نهائيًا لظلت تهاجم مكة مرة تلو مرة، وبالتالي استحال ازدهار محمد ﷺ، كما لم تتمكن قريش من رحلة الشتاء إلى اليمن كما هو مذكور في هذه السورة؛ إذ يستحيل السفر بحرية إلى بلد تشتعل فيها نيران الحروب؛ ولذلك لم يجعل الله تعالى أبرهة وجنوده يهربون خائفين، بل قضى على حكمه في اليمن نهائيا، وإلى هذا الدمار الشامل قد لفت الله الأنظار في سورة الفيل وقال: انظروا وفكّروا كيف دمّرنا أصحاب الفيل، وبالتالي لم ننقذ مكة من هجومهم فحسب، بل قضينا على حكم المسيحيين في اليمن نهائيًا. وأي شك في أن القضاء على حكمهم في اليمن هو الذي مهّد لنجاح مهمة الرسول ﷺ في مكة، وهذا الدمار نفسه مكّن قريشًا من رحلة الشتاء إلى اليمن؛ فأنّى لهم أن يخرجوا في رحلات الشتاء إلى اليمن وعدوُّهم ينتظرهم هنالك. كل ذلك يؤكد أن الله تعالى لم يرد القضاء على أبرهة وجنودِه فحسب، بل أراد حماية محمد ﷺ وحماية الكعبة وإزالةَ كل عائق يحول دون رحلات أهل مكة إلى اليمن. فكيفية هذا الدمار توضح أنه تم لإيلاف قريش أيضا، أي أن الله تعالى قد أراد بهذا الدمار حمايةَ قوم كانوا سيصيرون أمة النبي العربي، إذ كان نجاحه في مهمته يكمن في حمايتهم. فالحق أن الله تعالى لم يحمِ أهل مكة أو قريشًا لأنهم مكيون أو قرشيون، بل لأنهم كانوا سيصبحون أمة النبي العربي الأمي، ولو تشتتوا من هنالك لما صاروا من أمته. إذًا، فقد حماهم الله تعالى من أجل محمد ﷺ لا لأنهم أهل مكة، أي إنما حماهم لإنجاح محمد ﷺ.

باختصار، قد دُمر أصحاب الفيل تحقيقا للأهداف الثلاثة التالية:

الأول: إرساءً لعظمة محمد ﷺ

الثاني: توطيدًا لتعظيم الكعبة المشرفة

الثالث: إنقاذًا لقريش الذين كانوا سيصيرون حملة لواء دين المصطفى ﷺ، وليس لميزة ذاتية فيهم.

وهناك سؤال آخر أرى لزامًا أن أردّ عليه، وهو: ما دمنا نقول إن المتعلق باللام في ﴿لِإِيلَافِ﴾ هو قوله تعالى في سورة الفيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. فلماذا لا نعتبر هذه السورة جزءًا من سورة الفيل بدلاً من اعتبارها سورة مستقلة؟ وقد أكد بعض العلماء قولهم هذا مستدلين بأن هاتين السورتين قد وردتا في مصحف أُبيّ بن كعب سورةً واحدة. والدليل الثاني الذي يقدمونه هو رواية تقول إن سيدنا عمر ﷺ قرأ ذات مرة سورة التين في الركعة الأولى من الصلاة وقرأ في الركعة الثانية سورتي الفيل وقريش معًا بدون أن يقرأ بينهما البسملة، مما يدل أنه كان يعتبرهما سورة واحدة (الكشاف للزمخشري).

ولكن هذه الأدلة واهية لا قيمة لها. مما لا شك فيه أن أبيّ بن كعب كان أحد الأربعة الذين قال النبي ﷺ عنهم: مَن أراد أن يتعلم القرآن فليتعلمْ مِن قُرّاء الأُمة هؤلاء (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولكن ليس بوسع أحد أن ينكر أن أبيّ بن كعب يمكن أن يخطئ كأي شخص آخر. فنحن عندما نكتب مقالا بأيدينا نرتكب فيه أخطاء شتّى، والنُسّاخ المهرة الذين يكتبون القرآن الكريم هم أيضًا يخطئون أحيانا في نسخه، فصدورُ مثل هذا الخطأ من أبي بن كعب ليس بمستبعد، فقد نسِي كتابة البسملة بين السورتين. أما المصحف الموجود بين أيدينا فقد وردت فيه هاتان السورتان منفصلتين، وقد فصلتْهما البسملة، وهذا المصحف لم يعمل في جمعه أبيّ بن كعب فحسب، بل عمل عليه معه صحابة آخرون لم يكونوا أقل مكانة منه في القراءة. لقد قام هؤلاء القراء الأربعة بجمع هذا المصحف بمساعدة سائر الصحابة، ولا جرم أن المصحف الذي جُمع من قِبل هؤلاء كلهم معًا هو الأصحّ.

ثم هناك احتمال لورود الخطأ في مصحف أُبيّ، إذ لم يناقشه أحد، أما هذا المصحف الذي بين أيدينا، فقد خضع للبحث والنقاش، وقد أدلى الصحابة بشهاداتهم على صحته، فلم تُكتب فيه سورة ولا آية ولا حركة إلا وجُمعت حولها شهادات من نوعين: كتابية وسماعية، بمعنى أن هذه الآية كانت قد كُتبت أمام الرسول ﷺ، وأنهم قد سمعوها هكذا منه ﷺ. ما أعظمَ هذه الجهودَ! وما أشدَّ هذه

الحيطةَ التي أُخذت بصددها! إذ لم يقبلوا أي شهادة شفوية ما لم تكن مقرونة بشهادة كتابية، و لم يقبلوا أي شهادة كتابية ما لم تكن معها شهادة شفوية. إذن، فلم يضموا في هذا المصحف سورة ولا آية ما لم تكن عليها شهادة كتابية وشهادة شفوية. وقد بلغ عدد هؤلاء الشهود أحيانا المئات. هناك آية أو آيتان فقط وجدوا لهما شاهدين قالا إننا سمعنا الرسول ﷺ يقرؤهما هكذا (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، أما سائر السور والآيات فشهد على صحتها عشرون أو خمسون أو مئات بل آلاف. باختصار، لم يعتبروا أي آية قطعية أو يقينية و لم يضمّوها إلى القرآن الكريم إلا إذا ثبتتْ كتابتُها أمام الرسول ﷺ.. أي أنه أملاها بنفسه، ثم شهد الشهود شفويا بأنهم سمعوه ﷺ يقرؤها هكذا، أو علّمهم إياها هكذا.

فالمصحف الموجود بين أيدينا -الذي وردت فيه سورتا الفيل وقريش منفصلتين- يشكّل في حد ذاته دليلا يقينيا قطعيا على أن هاتين السورتين منفصلتان. أما إذا كان أحد يجمع المصحف بنفسه، فمن الوارد أن ينسى كتابة البسملة بين سورتين. فالحجة التي يقدمونها ليست ذات قيمة.

وبالإضافة إلى هذا الدليل السلبي، هناك دليل إيجابي أيضا على ورود البسملة قبل سورة قريش، وبالتالي على كونها سورة منفصلة. وهذا الدليل الإيجابي هو أن الثابت بإجماع جميع المؤرخين والقراء والصحابة الذين كانوا خبراء هذا العلم أن سورة براءة هي الوحيدة التي لم تستهلّ بالبسملة، وأُبيّ بن كعب نفسه هو أحد هؤلاء الشهود، إذًا، فعدم ورود البسملة في بداية سورة قريش في مصحف أُبيّ بن كعب، هو خلافٌ للتواتر، فلا شك أنه قد حصل منه خطأ.

والثابت قطعيًا من الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ إذا أملى البسملة قبل سورة، كان هذا دليلا قطعيا على كونها سورة مستقلة منفصلة، ومن أجل ذلك يوجد اختلاف حول سورة براءة فيما إذا كانت سورة منفصلة أم لا. وكان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يرى أن براءة ليست سورة منفصلة، بل هي قِسم من سورة الأنفال (حقائق الفرقان ج٢ ص٢٧٥). وأرى أن هذا هو الأصحّ؛ إذ توصلتُ بعد إعمال الفكر أن سورة الأنفال تُقدِّم دعوى، وقد جاء الدليل

التفصيلي عليها في سورة براءة، ولما كان هذا الدليل موضوعا مستقلا وهاما، فاعتُبر قسمًا من سورة الأنفال. فالحق أن براءة ليست سورة منفصلة، بل هي أحد فصول سورة الأنفال. ويكفي دليلا على ذلك ما ورد في الأحاديث صراحة أن النبي ﷺ كلما أملى سورة جديدة أملى قبلها البسملة دائمًا (أبو داود، كتاب الصلاة)، وحيث إن براءة لم تبدأ بالبسملة فهي ليست سورة منفصلة عن الأنفال، ولما كانت أحد فصولها، فقد سماها المسلمون سورة براءة.

وقد ردّ المفسرون على مَن اعتبر سورتي الفيل وقريش سورة واحدة بقولهم إن اتحادهما في المضمون ليس دليلا أنهما سورة واحدة (جامع البيان للطبري). وهذا الجواب صحيح تماما؛ ذلك أن القرآن الكريم كله مرتب ومنسق، ومضامينه منظومة كاللآلئ، فلا يصح القول أنه ما دام متعلِّق اللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ موجودًا في سورة الفيل، فهما سورة واحدة. لو سلّمنا بهذا الدليل فلا بد من اعتبار القرآن الكريم كله سورة واحدة؛ لكون مضامينه كلها مرتبطة بعضها ببعض. وأوضح مثال على ذلك موجود في بداية القرآن الكريم نفسه، فقد ورد في سورة الفاتحة دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، بينما ورد في مستهل سورة البقرة ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الكامل الذي طلبتموه في دعائكم، وفيه هدى للمتقين، مما يعني أن السؤال ورد في سورة الفاتحة وجاء جوابه في بداية سورة البقرة، فهل يجوز لنا، بسبب هذه العلاقة بين السورتين، أن نقول إنهما ليستا مستقلتين؟ كلا، و لم ينكر أحد استقلالهما بسبب هذه العلاقة بينهما.

المحذوف الثاني: والمحذوف الآخر للام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ عند بعض المفسرين هو: اعجبْ يا محمد لإيلاف قريش.

لا شك أن اللام في العربية تفيد التعجب أحيانا، وإذا وردت لام التعجب في جملة فلا بد أن يسبقها فعل التعجب أو محذوف يقدَّر، وحيث إنه لا يوجد هنا لفظ التعجب، فيرى المفسرون أنّ هناك متعلقًا محذوفًا وهو "اعجبْ"، والتقدير:

"اعجبْ يا محمد لنِعَم الله على قريش في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"(جامع البيان للطبري)؛ إذ ساعدَ هذا على تقوية معاشهم وبثِّ هيبتهم في الآخرين. كان أهل مكة يحبّون بلدهم حبًا شديدا، و لم يرضوا بمغادرتها يوما، ولذلك يقول الله تعالى انظرْ كيف رضوا بالرحلات الدائمة إلى الشام صيفًا واليمن شتاءً مع حبهم الشديد لمكة –سوف أبين الحكمة من وراء ذلك لاحقا– مما كان يهيئ لهم المعاش ويبثّ هيبتهم في القبائل المجاورة، و لم يكن هذا الأمر صدفة، بل نحن ألقينا محبة هذه الأسفار في قلوبهم بقدرنا الخاصّ، فمن واجبهم أيضًا أن يعبدوا رب هذا البيت الذي بسبب بيته نالوا العز والهيبة.

المحذوف الثالث: ويرى آخرون أن المتعلق المحذوف باللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ هو قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البَيْتِ﴾. هذا ما ذكره الزمخشري وبعض النحاة القدامى. والحق أنه قول الزَّجّاج الذي قبِل به الزمخشري وذكَره في تفسيره (الكشاف).

وقد اعترض البعض على هذا قائلاً: لقد وردت الفاء في قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، والفاء تأتي دائما في الجزء الأخير من الجملة، مع أن المحذوف المتعلق بـ ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ يجب أن يُذكَر في بداية العبارة لا في آخرها. يقول هؤلاء المعترضون: صحيح أن الشيء قد يؤخَّر ذِكرًا مع أنه يكون مقدّمًا مكانًا، ولكن الفاء في جملة ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ تكشف أن هذه الجملة مؤخَّرة مكانًا وذِكرًا، فكيف تُعتبر متعلقا لحرف اللام الوارد في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ الذي يجب أن يكون مقدما مقاما ومعنى وإن لم يقدَّم ذِكرا؟

وقد أجاب عليه الزَّجّاج والزمخشري بأن الفاء تدخل على جواب الشرط، وهناك محذوف قبل الفاء، وأما الشرط قبل الفاء فمحذوف، وعليه تدل الفاء لا على (إيلافهم)، فالتقدير كالآتي: فإن لم يعبدوا بسبب نعمة أخرى فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه قريشًا رحلةَ الشتاء والصيف (الكشاف وروح المعاني).

علمًا أن "إيلاف" هو مصدر آلَفَ، ولفعل آلفَ مصدر آخر هو إلاف،

يقال: آلفَه مؤالفةً وإلافًا: آنسَه وعاشرَه، وآلفتُه مكانَ كذا إيلافًا: جعلتُه يألفُه (الأقرب).

وإذا ورد فعلُ "آلَفَ" وحده فلا نستطيع تحديد المعنى إلا من السياق، أما إذا ذُكر معه مصدره (أي الإلاف أو الإيلاف) فلا صعوبة في تحديد معناه. وحيث إن المصدر مذكور هنا وهو الإيلاف، فالمعنى: إلقاءُ حُبِّ شيءٍ- وخاصةً حبّ مكان وبلد- في القلب. واللافت أن كبار العلماء أيضا يتعثرون أحيانًا، وهذا ما حصل هنا أيضًا، فمع أن الله تعالى قد قال هنا صراحةً: "إيلاف"، إلا أن بعض المفسرين فسروها بمعنى "إلاف". وقد وقعوا في هذا الخطأ بسبب صياغة هذه الكلمة، ذلك أن آلَفَ هو في الأصل أَأْلَفَ، مثل آمَنَ الذي هو في الأصل أَأْمَنَ، حيث أُدغمت الهمزتان وجُعلتا مدًّا. وآلَفَ له وزنانِ: أحدهما فاعَلَ، ومصدره إلاف على وزن فِعال، والآخر أفْعَلَ ومصدره إيلاف على وزن إفعال، ولذلك قلت إن فعل آلَفَ إذا ورد بدون المصدر فمعناه يتحدد بالسياق. أما إذا ذكر مصدره معه عُرف معناه فورا. وقد ذكر الله تعالى هنا المصدر وهو "إيلاف" توضيحًا لمعناه، ومع ذلك قد فسره بعض كبار العلماء بمعنى "إلاف"، بل قد أجاز بعضهم أن يُقرأ في مكانٍ "إلاف" وفي آخر "إيلاف"(جامع البيان للطبري).

يقال: آلفتُه مكان كذا، أي جعلتُه يألفه. وآلفَه إيلافا: هيّأه وجهّزه. وآلفَه إياه: ألزمه إياه.

ونظرًا إلى المعنى الأول -وهو آلفتُه مكان كذا: جعلتُه يألفه- سيعني قوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أننا دمرنا أصحاب الفيل لإيلاف قريش رحلةَ الشتاء والصيف، أي أهلكناهم لنُلقي في قلوب قريش حُبَّ رحلات الشتاء والصيف.

أما نظرًا إلى المعنى الثاني -وهو آلفَ إيلافا: أي هيّأه وجهّزه- فستعني الآية: اعجبْ لتجهيزنا وإعدادنا قريشًا لرحلات الشتاء والصيف. بمعنى أنه من المستغرب استعدادُ هؤلاء القوم لهذه الأسفار وتهيؤُ كل نوع من الأسباب لرحلاتهم، ذلك أن التجهيز يعني الإمداد بالأسباب الضرورية أيضا، إذن، فقوله تعالى إشارةٌ إلى أن الله تعالى هيّأ لهم الأمن وفتح لهم الطرق وألقى حبهم واحترامهم في قلوب الناس. ثم إن

رغبتهم في هذه الأسفار أيضا أمر يثير العجب، لأن أهل مكة كانوا يعشقون هذه البلدة، و لم يكونوا يريدون مغادرتها والسفر عنها.

أما نظرًا إلى المعنى الثالث –وهو آلفَه إياه: أي ألزمَه إياه– فالآية تعني أننا أهلكنا أصحاب الفيل لكي نُلزم قريشًا برحلات الشتاء والصيف فلا يتركونها. فلولا تدمير أصحاب الفيل لاضطرت قريش لترك هذه الأسفار، ولكننا أردنا أن يواصلوا رحلاتهم، فأهلكنا أصحاب الفيل.

أما المعنى الرابع – وهو باعتبار قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ متعلقا باللام في ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾– فهو أن من واجب قريش أن يعبدوا رب هذا البيت شكرًا على أنه ألقى في قلوبهم حبّ رحلات الشتاء والصيف هذه. أي أن الله تعالى قد أنعم عليهم كثيرا إذ ألقى في قلوبهم حُبَّ هذه الأسفار، ثم هيأ لهم الأسباب لها، فوجب عليهم أن يشكروه عليها ويعبدوه.

والمعنى الخامس هو: اعجبْ يا محمد لالتزام قريش برحلات الشتاء والصيف، بمعنى: لماذا هم يخرجون لهذه الرحلات بدلاً من أن يعبدوا الله تعالى مجاورين بيته؟ وسوف أتناول هذا الموضوع تفصيلا لاحقا، بيد أني أكتفي بالقول هنا أنني لا أرضى بهذا المعنى في شكله هذا.

هناك أمر جدير بالذكر هنا قد بيّنه بعض المفسرين بصدد لفظ (إيلاف)، فقالوا لقد ورد هذا اللفظ هنا مرتين في قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ﴾، وقد اختلف القراء في قراءته في المكانين، فقال بعضهم إن ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ تُقرَأ "لإلافِ قريش"، ولكنها تُكتَب "لإيلاف قريش" باتفاق الجميع، أما ﴿إِيلافِهِمْ﴾ فغالبيتهم يرون أنها تُقرأ "إيلافهم" وتُكتب "إلافهم".

وقد استدل المفسرون بذلك على أمر لطيف للغاية، فقالوا: إن في ذلك دليلاً عظيمًا على حفظ القرآن الكريم وحمايته، حيث إن كتابته وروايته كلتيهما قائمة كما هي، لا يحوم حولها الشك. فلو أن الذين يقرأون "إيلاف" بدلاً من "إلاف" شكّوا في كتابة القرآن الكريم لقالوا يجب أن يكتب هكذا في المصحف أيضًا، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل ظلوا يكتبونه إلافًا ويقرأون إيلافًا؛ مما يعني أنه لا يسعهم

أن ينكروا أن النسخة القرآنية التي وصلتنا من الرسول ﷺ كان مكتوبًا فيها (إلافهم)، وإلا أفليس غريبا أنهم يؤمنون أن القراءة هي "إيلافهم"، ومع ذلك يكتبون "إلافهم". فأي دليل أكبر من ذلك على حفظ القرآن الكريم؟

أما المصاحف المطبوعة في القارة الهندية فتُكتب"إيلافهم" فيها بالهمزة الواقفة هكذا: "إلافهم"، إلا أن الكلمة تبقى في الواقع "إيلافهم" في القراءة. والحق أن كلا الأسلوبين للكتابة بالياء وبالكسرة الواقفة متداول.

أما قوله تعالى ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فكلمة "إيلافهم" جاءت للتأكيد، وهي بدل من (إيلاف قريش)، والبدل يعني أن تعاد الكلمة نفسها أو بكلمة مرادفة لها تأكيدًا للكلام. وفي لغتنا الأردية أيضا يؤكدون الكلام بإعادة الجمل، ولكن لا أدري ما إذا كانوا يسمونه بدلاً أم غير ذلك، فيقال مثلا: انظرْ، أنا أقول لك، أنا أقول لك. فثبت أن التأكيد يتم حينًا باللفظ وحينًا بالمعنى؛ فقوله تعالى ﴿إِيلافِهِمْ﴾ يعني: أننا فعلنا ذلك لإيلاف قريش، نعمْ لإيلافهم.

هذا التأكيد يمكن أن يكون لرحلة الشتاء والصيف، أو للإيلاف، فالمعنى الأول: لقد قمنا بإيلاف قريش من أجل رحلة الشتاء والصيف، فالتأكيد هنا على رحلة الشتاء والصيف، أما المعنى الثاني فهو أننا دبرنا رحلة الشتاء والصيف لإيلاف قريش.

قد يقال هنا لقد فُسّرت هذه الآية بخمسة أو ستة معان مختلفة، فأصبح الموضوع مبهما!

الواقع أن هذا القول خطأ، فهذه المعاني المختلفة لا تجعل الموضوع مبهما، بل مثل هذا الاختلاف يوسّع معاني كلام الله تعالى، وكلها مقصودة في وقت واحد، لأننا نؤمن أن القرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، وإذا كانت بعض آياته تحتمل ثلاثة مفاهيم أو أربعة، و لم يكن اثنان أو ثلاثة منها مقصودة عند الله تعالى، فما كان صعبًا عليه تعالى أن يوضح لنا أن هذا هو المعنى المراد هنا حصرًا، نافيًا المعاني غير المقصودة. فما دام الله تعالى قد استعمل جملة أو لفظا يحتمل عدة معان، وما

دام تعالى عليما خبيرا، فكان ينبغي أن ينفي المعاني غير المقصودة، محددًا المعنى المقصود فقط. لو كان هذا كلام إنسان لقلنا إن الإنسان يمكن أن يخطئ، إذ يستعمل كلمة لا يعرف جميع معانيها، أو لا يعرفها عند التلفظ بها، أو لا يستحضر معانيها عند التلفظ بها، وهكذا يقع في الخطأ.

هناك طريفة شهيرة في بلادنا عن المِلك "نواب سعادة علي خان" بأنه كان ذات مرة في بلاطه بين حاشيته الذين كانوا يكيلون له المدح والثناء. وكان الجميع يعرف أنه ابنُ أَمةٍ، والقاعدة أن الحاشية يتكلمون بكلام يدفع عن المِلك التهمة الموجهة إليه ليفرح بقولهم ويثق بولائهم، فقال بعض القوم: ما أعظمَ الملكَ شأنًا فإنه نجيب الطرفين، ولا نساويه شيئا. وكأنه أراد تبرئة ساحته من كونه ابنَ أَمةٍ. وكان بين الحاشيةِ السيد "إن شاء الله خان"، الذي كان مدلَّلاً عند المِلك، وكان يحاول دائمًا أن يسبق الآخرين في مدحه ليعتبره أكثرهم ولاءً، فلما قال القوم إن الملك نجيب الطرفين قال السيد "إن شاء الله خان" في حماس: إنه ليس نجيب الطرفين فحسب، بل هو أنجبُ. وكان مراده أنه أكثر الناس نجابةً، ولكن من سوء طالعه أن كلمة (أنجبُ) تعني ابن أَمةٍ أيضا. لقد تلفّظَ بالكلمة غيرَ منتبه إلى معناها المسيء إلى المِلك. والمرء يتفوه أحيانا بكلمة سيئة ولا ينتبه السامعون إلى ما فيها من سوء، ولكن من عجائب القدر أنه كان في البلاط علماء عظام، وكان المِلك نفسه عالما بالعربية، فتبادر إلى أذهان الحاشية والمِلك نفسه المعنى السيئ للكلمة، فساد الصمت البلاطَ كله. فحاول "إن شاء الله خان" تدارُكَ الأمر بالثناء الكثير على الملك ولكن دون جدوى. فأبغضه الملك بغضًا شديدا وأخذ يذله ويخزيه، حتى صار هذا الرجل الذي كان يقضي معظم وقته في بلاط الملك يسقط ويسقط إلى أن وصل إلى الحضيض.

إذن، فقد يستعمل المرء على سبيل الخطأ كلمةً لا يعرف معانيها العديدة، ولكن كيف يمكن أن يفعل الله هكذا؟ أليس الله يعلم كل المعاني المختلفة للكلمة التي يستخدمها؟ ما دام الله تعالى عليما وخبيرا بأن كلمة ما تنطوي على عدة معانٍ، وهو يقصد معنى واحدا منها، أفلا يليق به وبعظمته أن يحدّد المعنى المقصود دون

المعاني الأخرى؟ أما إذا كان كلام الله ينطوي على أكثر من معنى و لم يرفض بعضها، فمن قواعد التفسير أن نعتبر تلك المعاني كلها صحيحة، فهو كلام الله عالم الغيب، وإذا كان بعض معانيه غير مقصود فينبغي أن يوضح ذلك؟ ولذلك نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى كلما استعمل كلمة ذات معان عديدة وكان هناك احتمال الخطأ في تحديد معناها المقصود، أزال الله تعالى احتمال هذا الخطأ دائما مبينًا المعنى الذي يعنيه دون المعاني الأخرى.

ولا يغيبنّ عن البال أيضًا أن الله تعالى قد أعلن في القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(يوسف:١١٢).. أي أن هذا القرآن الذي أنزلناه ليس فيه أي مفتريات، إنما نزل مصدِّقًا الأنباء السابقة كلها، وفيه تفصيل المواضيع والقضايا كلها.

ولكن ما هو حجم هذا الكتاب يا ترى؟ إنه أصغر من الإنجيل أيضا. وما دام الله تعالى قد أعلن أن القرآن كتاب يحتوي على كل نوع من المواضيع والقضايا الدينية، فمن المستحيل بيانها كلها مفصلةً في كتاب صغير كالقرآن، إذ يتطلب هذا البيان المفصل آلاف المجلدات، ولو كان القرآن بهذا الحجم لم يستطع الناس حفظه عن ظهر قلب، وبالتالي صار حفظه وحمايته مشكوكا فيه. إن الناس إذ كانوا يحفظون القرآن بسهولة فإنما لكونه كتابًا صغير الحجم. يا ترى، كم سيكون عددُ حُفّاظ القرآن لو كان عشرين مجلدا مثل "الأغاني" و"لسان العرب"؟ لا شك أن القلة القليلة جدًا سيحاولون حفظه عن ظهر قلب، ثم إن ضخامته ستجعل أمر حفظه مشكوكا فيه، ولقيلَ: لا بد أن تكون بعض الأخطاء قد تسربت فيه لأن من المحال أن يحفظ الناس كتابًا ضخمًا مثله. لكن تجد اليوم حفّاظه يبلغون مئات الآلاف، حتى لم يملك ألد أعداء الإسلام مثل "وليام موير" و"نولدكه" و"سبرنجر" إلا أن يعترفوا قائلين: إننا مهما قلنا عن القرآن الكريم إلا أنه لا يسعنا إنكار أنه محفوظ حتى اليوم كما قدّمه محمد (ﷺ) إلى أصحابه (Life of Muhammad p562-563). فترى أنه برغم أن هؤلاء القوم لا يعترفون أن القرآن قد نزل من عند الله تعالى، ولكنهم لا يملكون إلا الاعتراف أن هذا الكتاب محفوظ حتى اليوم كما قدمه محمد

لأتباعه، و لم يطرأ عليه أي تغيير. وقد اعترف بعضهم علنًا أنه لا يمكن الطعن في القرآن الكريم كما الإنجيل والتوراة. وليس سبب ذلك إلا لأن أحدا لا يحفظ كتبهم، بينما يوجد حفّاظ القرآن بمئات الآلاف. ولكن ما كان هذا الكتاب ليُحفظ عن ظهر قلب إلا إذا كان وجيزا. فمن ناحية كانت أهمية حفظ القرآن عن ظهر قلب تحتّم أن يكون كتابا وجيزا، ومن ناحية أخرى كان إعلان القرآن أن فيه تفصيل كل شيء يحتّم أن يضمّ المواضيع والقضايا الدينية كلها، فكيف يتحقق هذان الأمران فيه يا ترى؟ إن هذا ما كان ليتحقق إلا إذا كانت الجملة الواحدة من القرآن محتوية على مفاهيم عديدة. لو أنكرتَ هذا الأمر الحكيم فأخبرْني كيف كان القرآن سيضمّ المواضيع والقضايا كلها؟ فهذان الادعاءان القرآنيان بحفظه مشافهةً وكتابةً وباحتوائه المواضيع والقضايا كلها كانا يحتّمان أن تحتوي كل آية منه على عدة معان، بل قد أعلن الرسول ﷺ نفسه أن لكل آية قرآنيةٍ سبعةَ أوجُهٍ (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولو كان في كل وجه سبعةُ معان لصارت لكل آية ٤٩ مفهوما. فالرسول ﷺ يؤكد سعة مفاهيم كل آية من آيات القرآن الكريم.

باختصار، ما دام القرآن الكريم يعلن احتواءه المواضيع كلها وبأنه سيُحفظ عن ظهر قلب ليصبح محفوظا ظاهرا، فهذا يحتّم نزول القرآن بعبارة موجزة واسعة المعاني، ولذلك لزم أن يستخدم الله تعالى هذا الأسلوب من الكلام، وإلا لتجاوز هذا الكتاب آلاف المجلدات. فالحق أن القرآن الكريم قد نزل بحيث إن كل جملة أو آية منه تحتوي على معان عديدة، وإذا لم يكن بعضها مقصودا نفاه الله تعالى في الآية نفسها أو في آية أخرى، وهكذا احتوت كلمات القرآن الموجزة معاني واسعة. والآيات قيد التفسير أيضا مثال لهذه الميزة الكمالية للقرآن الكريم، حيث أشارت باتّباع هذا الأسلوب الخاص إلى معان عديدة، وكلها صحيحة ومفيدة لتبليغ الحق.

فالحق أن كون كلمةٍ أو آيةٍ عديدةَ المعاني لا يؤدي إلى الإبهام، بل هو دليل على كمال القرآن، حيث تحتوي الجملة الموجزة على مفاهيم واسعة. خذ مثلاً هذه الآية القرآنية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(الإنسان:٩)، فقد بين الله تعالى باستعمال الضمير الغائب في كلمة ﴿حُبِّه﴾ هنا موضوعا واسعا

يمكن أن نؤلف في بيانه وتفصيله كتابا. فهذه الآية تبين موضوعا فلسفيا، وقد كتب بعض الفلاسفة الأوروبيين كتبًا مستقلة حول كل جزء منه (The New International Webster Comprehensive Dictionary p 1404). ذلك أن الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن الله تعالى، لذا فمن معاني قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾.. أنهم بسبب حُبّهم لله تعالى يطعمون الطعام ذوي الحاجة. ثم لأن الطعام مذكور هنا فيمكن إرجاع الضمير إليه ويكون المراد: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ رغم حُبِّهم له.. أي أنهم رغم كونهم جياعًا ويحتاجون الطعام يؤْثرون الآخرين على أنفسهم، فيطعمونهم ويظلّون هم أنفسهم يعانون من الجوع. ومن معانيها: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِم إطعامَ الطعام.. أي أنهم يقومون بهذا العمل حبا له. فهذه مدارج أخلاقية عالية قد أشار الله إليها بهذه المعاني الثلاثة، وقد قام الفلاسفة الأوروبيون في هذا العصر بنقاشات طويلة حولها، حيث أثاروا سؤالا هاما: ما هو الخير؟ ولماذا نقوم به؟ ثم أجاب عليه بعضهم قائلا: إن الخير هو ما يفعله المرء من أجل الخير فقط، دون أن يبتغي به منفعة.

(Encyclopaedia of Religion and Ethics vol.5 p.467)

وقال آخرون: الخير هو ما يكون وراءه هدف سامٍ. وقال غيرهم: الخير ما تفعله لراحة الآخرين متكبدا العناء

(The New International Webster Comprehensive Dictionary p 1404)

وكل هذه النكات الفلسفية الثلاث قد تضمنها قول الله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، فإن القرآن يسلّم أن على المرء أن يعمل الخير مؤثرا راحة الآخرين على راحته، ويسلّم أيضًا أن الخير ما يتم لأجل الخير فقط لا لمنفعة ذاتية، فقال إن عباد الله المؤمنين يعملون الخير لمجرد حبهم له. ثم يسلّم القرآن أيضًا بأن الخير هو ما يتم لهدف سامٍ، فقال إنهم لا يطعمون الطعام لمنفعة مادية، إنما لهدفٍ سامٍ وهو الفوز برضا الله تعالى. وكما قلت إن الفلاسفة في هذا العصر قد ناقشوا هذه المدارج الأخلاقية الثلاثة طويلا، وقد اختلفوا في ترتيب هذه النقاط الثلاث من حيث الأولوية، أما القرآن الكريم فقد قدّم هذا التعليم السامي الذي يحتوي على

هذه الفلسفة كلها بمجرد استعمال ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿حُبِّه﴾. فلو جاءنا فيلسوف وقال إنني أرى أن الخير ما يتم من أجل الخير فقط، قلنا له: نعم، هذا صحيح، وهذا ما يعلّمه القرآن، وسوف نضع أمامه هذه الآية. ولو جاءنا فيلسوف آخر وقال إني أرى أن الخير أن يعمل المرء لراحة الآخرين متكبدا العناء، قلنا له: نعم، وهذا ما يعلّمنا القرآن، وسنضع أمامه هذه الآية. ولو جاءنا فيلسوف آخر وقال إني أرى أن الخير هو ما يتم لهدف سامٍ، قلنا له: نعم، وهذا ما يعلّمنا القرآن، وسنضع أمامه هذه الآية. ولكن لو استخدم الله تعالى هنا كلمة "الطعام" أو "لفظ الجلالة" أو لفظ "الإطعام" بدلاً من ضمير الغائب، لأدت معنى واحدًا فقط دون الأخرى. هذه هي الحكمة وراء استعمال ضمير الغائب بدلاً من الاسم، وإلا فإن الله تعالى كان بإمكانه أن يقول: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الله، أو: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الطعام، أو: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الإطعام، ولكنه قال ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ليرجع الضمير إلى المعاني الثلاثة في وقت واحد.

إذن، فمن عظيم كمالات القرآن الكريم أنه يودع الكلماتِ الموجزة مفاهيمَ واسعة يحتاج بيانها إلى كتب ضخمة. وقد ثبت من هنا أن استعمال الكلام الموجز المفعم بمعان كثيرة ليس محل اعتراض قط. نعم، إذا كان لكلمة معنى يخالف إرادة الله تعالى فإنه سبحانه يشير إلى ذلك، موجّها الأنظار إلى المعنى المقصود نافيًا المعنى غير المقصود. بل قد لوحظ أن القرآن يستخدم أحيانا كلمة لها مفهومان، ثم يشرحها مركِّزا على المعنى المقصود شرحًا يبين أنه يقصد هذا المعنى دون الآخر.

الآن، وقبل أن أقوم بتفسير هذه الآيات؛ أود أن أقول شيئا عن كلمة قريش.

لفظ "قريش" مشتقّ من القِرْش، يقال: قرَشه يقرُشه وقرَشه يقرِشه قرْشًا: أي قطَعه. وقرَش الشيءَ: جمَعه من هنا وهناك وضمّ بعضه إلى بعض. وقرَش من الطعام: أي أصاب منه قليلا. وقرَش الجيشُ بالرماح: طعنوا بها. وقرَش فلان لعياله: كسَب. والقِرشُ: دابة تكون في البحر. وقُرَيش: دابة في البحر لا تدَعُ دابةً إلا أكلتْها، فجميع الدواب تخافها. وقريش قبيلة من العرب، وإن أردتَ بقريش الحيّ

صَرَّفته، وإن أردتَ القبيلة لم تصرفه، لانضمام التأنيث إلى العَلَميّة. والنسبة إلى قريش قُرَشِيٌّ وقُرَيْشِيّ (الأقرب).

أما سيبويه النحوي الشهير فيرى أنه يجوز تصريف قريش باعتبارها حيًّا، وهو القاعدة الأصلية، ولكن يجوز عدم تصريفها باعتبارها قبيلة ولا اعتراض على ذلك.

فقد كتب المفسرون بناءً على روايات الملاَّحين في زمنهم أن القرش حيوان بحري عظيم يهاجم السفن ويقلِبها، ولا يخاف شيئا إلا النار والضوء. وعندما يهاجم أصحابَ السفن يشعلون النار ويواجهونه بها.

وعندي أن ما ورد في القواميس عن القرش فهو يشير إلى سمك الحوت، فهي التي تضرب السفن بذنبها فتكسرها. وتكثر الحيتان على السواحل الإفريقية، وتُشاهد أحيانا على شواطئ بحر العرب، وأحيانًا على الشواطئ قرب كراتشي، مما يعني أن الحيتان في سواحل إفريقيا تمرّ من أمام البحر الأحمر قريبًا من سواحل الجزيرة العربية. أو يكون المراد هنا سمك القرش (shark)، فهي أيضا تهاجم القوارب الصغيرة وتقلبها (البحر المحيط). إننا لا نستطيع الجزم بأنها تأكل الحيوانات الأخرى كلها، ويحتمل أنها كانت تأكل السمك الذي كان العرب يعرفونه. أما قريش فيُعتقد عادة أنها سميتْ نسبةً إلى هذه السمكة.

وقد أورد المفسرون رواية عن ابن عباس ﷺ وأقوالاً لكبار العرب بهذا الشأن، فقد ورد أن معاوية سأل مرة عبد الله بن عباس عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم، فقال: سُمُّوا به نسبةً إلى سمك القرش التي هي أكبر حيوانات البحر وتأكلها كلها، ولكن لا يأكلها أحد –فلأن قريشا أكبر قبائل العرب وكانت القبائل الأخرى تهابها فسُموا قريشا– فقال معاوية: هل يمكن أن تثبت ذلك من شعر العرب؟ فقرأ ابن عباس أبياتًا ورد فيها أن قريشًا سُمّيت بهذا الاسم لغلبتها على القبائل العربية الأخرى كغلبة سمكة القرش على حيوانات البحر الأخرى. *

* وردت هذه الأبيات في مختلف المصادر كالآتي:

وقريش هي التي تسكن البح ... ر بها سميت قريش قريشا

هذه الرواية ليست صحيحة عندي، لأننا إذا تفحّصْنا الأبيات الواردة فيها تبينَ أنها رواية مزورة؛ فقد ورد فيها أن نبيًا سيظهر قريبا وسيصبح مرجعا للعرب كلهم. فإذا كانت العرب تنشد أبياتًا كهذه فكيف يمكن أن يكفروا بالنبي ﷺ ويعارضوه معارضة شديدة ويقاوموه مقاومة شديدة؟ فالرواية موضوعة، بيد أنه لا يمكن إنكار أن العرب كانوا يرون -وهذا ما يؤكده التاريخ أيضا- أن قريشا سُمِّيت بهذا الاسم نسبةً إلى هذا الحيوان (تفسير الخازن).

ولكن السؤال هنا: لماذا سُمّوا قريشًا مع أن هذا الحيوان يسمى قرشًا؟

سوف أجيب على هذا السؤال بجوابين، أوّلهما: القرش حيوان عظيم يأكل سائر الدواب البحرية، وتخافه سوائر الدواب البحرية لأنه يأكلها، أما قريش فقبيلة صغيرة، فكان الأَولى أن تُسمّى قُريشًا.. أي قِرشا صغيرا، فكأنه اسم تصغير إشارةً

تأكل الغث والسمين ولا تت ... رك يوماً لذي جناحين ريشاً
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلاً كميشا
ولهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم والخموشا

وورد في مصدر آخر:

وقُرَيْش هي التي تَسْكُنُ البحر ... بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
سلَّطَتْ بالعُلُوّ في لجة البحر ... على سائر البُحور جُيُوشَا
تأكل الغثَّ والسمين ولا تترك ... فيه لذي الجَناحَيْن رِيْشَا
هكذا في الكتاب حي قريش ... يأكلونَ البلاد أكلا كميشا
ولهم في آخر الزمان نبيٌّ ... يُكْثِرُ القَتْلَ فيهم والخُمُوشَا

وورد في مصدر آخر:

هكذا في العباد حيٌّ قريش ... يأكلون البلادَ أكْلاً كشيشاً
ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ ... يَكثر القتل فيهمُ والخموشا
يملأُ الأرضَ خَيلةً ورجالاً ... يحشُرون المطيَّ حشْراً كميشاً

(انظر القرطبي، والدر المنثور، وروح المعاني، والبغوي)

إلى أنها كسمكة قرش صغيرة. بينما قال الآخرون ليس الأمر هكذا، بل إن صيغة التصغير تفيد التعظيم أحيانا، فقريش تعني قرشا كبيرا، والمراد قبيلة كبيرة.

أرى أن في هذه المعاني تكلفًا إلى حد ما، فمع أن الثابت عن الصحابة وعامة العرب أن قريشا سميت بهذا الاسم نسبة إلى هذا الحيوان، إلا أن هذا الاسم لم يُطلق عليهم في زمن الصحابة، بل سموا به منذ زمن قديم. ثم لم يَذكر هذا المعنى القرآنُ الكريم ولا الرسولُ ﷺ، فلو قال القرآن أو الرسول ﷺ إن قريشا سميت بهذا الاسم نسبة إلى سمك القرش لقلنا آمنّا وصدّقنا، لأن الله عالم الغيب، ورسوله كان يتلقى أخبار الغيب منه، ولكن لا نجد أي رواية ولو ضعيفة تذكر أن هذا هو السبب وراء تسمية قريش. أما الصحابة فإنما رووا ما سمعوه من قومهم، ثم ليس من الضروري أن يكون ما يُروى عنهم صحيحا، لأن بعض ما يروى عنهم صحيح وبعضه باطل، لذا فلسنا ملزَمين بتصديق ما ينسب إليهم بأن قريشًا سميت بهذا الاسم نسبة إلى سمكة القرش.

أما جوابي الثاني فهو أن لفظ "قريش" مشتقّ من قَرَشَ يقرِش، أي جمَع من هنا وهناك، وهذا هو المعنى الذي ذكره أيضا العلامة الكبير القرطبي الأندلسي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن). وهذا هو المعنى الذي كنت أبينه دائمًا، ولكن لم أكن أعلم من قبل أن القرطبي سبقني به وأنني لست أولَ مَن ذكره. والقرطبي مفسر أندلسي كما قلتُ، ومن المستغرب الدالّ على حكمة إلهية أن ما كتبه مفسرو الأندلس هو أكثر معقولية مما ذكره مفسرو بغداد وعلمائها -ولعل الله تعالى قد أشار بذلك أن أهل أوروبا سوف يتفوقون على غيرهم مستقبلا ثانيةً في خدمة الإسلام- فأفضل الكتب المؤلفة في مختلف العلوم والفنون إنما كُتبت في الأندلس، إلا علم الحديث، ذلك لأن علم الحديث ما كان ليخرج وينتشر إلا من بين قوم عاشوا حول الرسول ﷺ، وقد كانت إقامة هؤلاء في بغداد أو دمشق، ولذلك لم يؤلَّف في إسبانيا كتابٌ في الحديث يبلغ مستوى الكتب المؤلفة في الجزيرة العربية وما حولها. أما العلوم الأخرى فقد نبغ فيها أهل الأندلس وألّفوا كتبًا ضخمة فيها. وعلى سبيل المثال، فنابغة الفلسفة "ابن رشد" كان أندلسيًّا، ونابغة التصوف عند

الجميع أعني حضرة "محيي الدين بن عربي" كان من الأندلس، أما نابغة الفقه الذي يُعتبر كلامه آخر شيء في الفقه أعني العلامة **ابن حجر**✪ فكان أيضا أندلسيا. أما القرطبي الذي هو من عظام المفسرين فكان أيضا أندلسيا. وكان العلامة أبو حيان -صاحب البحر المحيط- أيضا أندلسيا، وأرى أنه ليس بين التفاسير القديمة تفسير يساوي البحر المحيط، فصاحبُه هو المفسر الوحيد الذي ادعى، قبْل الجماعة الإسلامية الأحمدية، وجودَ ترتيب في القرآن الكريم، وقد حاول إثبات دعواه بأدلته، مع أنه لم يستطع إثباته كما أثبتنا، إلا أنه هو المفسر الوحيد بين القدامى الذي أعلن أن القرآن ليس كتابا غير مرتب، بل كله كلام مرتب منسق. كما كان أبو حيان إمامًا في النحو والأدب أيضا.

المهم، أن القرطبي -المفسر الأندلسي- هو الآخر قد رأى ما أراه بشأن تسمية قريش. المؤسف أن تفسيره لم يُطبع كله بعد، وقد صدرت منه ثلاثة مجلدات في مصر حتى الآن، وهي في حوزتي، وأما باقي تفسيره فلم يظهر إلى النور. وهناك أخطاء مطبعية خطيرة فيما طُبع من تفسيره، حيث توجد في كل الأحاديث الواردة فيه أخطاء، فإذا نقلتَ منه حديثًا وجدتَ فيما بعد أن فيه خطأ. يبدو أنهم لم يأخذوا عند طبعه حيطة كافية. باختصار، قد قال القرطبي أن لفظ "قريش" مشتقّ من قَرَش، ومعناه جمَع وضمَّ مِن هنا وهناك (لسان العرب). وقد ذكر "الذبياني" أيضًا هذا المعنى أيضا إضافة إلى معنى آخر.

وقريش في الواقع اسمٌ يطلق على أولاد النضر بن كنانة، وهذا مروي عن الرسول ﷺ، فقد سئل مَن هي قريش؟ فقال: قريش مِن وُلْدِ النضر.

كما ورد في حديث أن النبي ﷺ قال: إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي)

✪ لقد حصل هنا سهو، فالفقيه الأندلسي الشهير هو ابن حزم، ولا بد أن يكون هو المقصود. (المترجم)

بينما ورد في حديث آخر: هُمْ مِن ولد النضر بن كنانة.

والحق أنه كان لكنانة أكثر من ابن، فأوضح النبي ﷺ هنا أن قريشا هم أولاد ابنه النضر فقط، لا جميع أولاد كنانة (مجمع البيان).

وقد قال البعض إن قريشا هم أولاد مالك بن النضر فقط (فتح البيان)، بل قالوا لم يكن لأي من بني النضر نسل إلا مالك. ولكن هذا مجرد شعوذة تاريخية نتجت بسبب الخصومات المذهبية بين السنة والشيعة، لأنّ تفحُّص الروايات يكشف أنها رواية شيعية. ذلك أن سيدنا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ليسا من أولاد مالك بن النضر، إنما هما من أولاد ابن آخر للنضر، فلفّق أعداؤهما هذه الرواية لإخراجهما من قريش، ثم قالوا: لقد أخبر الرسول ﷺ أن الأئمة من قريش (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه)، ولكن أبا بكر وعمر ليسا من قريش. فالحق أن الشيعة وضعوا مثل هذه الروايات القائلة أنه لم يكن لأحد من أولاد النضر نسل إلا مالك، وبالتالي فليس أبو بكر ولا عمر من قريش. وهو قول باطل في الحقيقة، إذ كان أبو بكر وعمر من أولاد قصي بن حكيم بن النضر (المعارف لابن قتيبة ص ٩٨، ١٠٤).

الواقع أن إبراهيم عليه السلام كان قد أسكن إسماعيل عليه السلام عند الكعبة لحمايتها، ولكن خمد الحماس الديني في أولاد إسماعيل بمرور الزمن كما حال "السادات" اليوم، إذ يوجد الآن بينهم بعض السارقين وقطاع الطرق أيضا. لقد حافظ أولادهم على هذا العهد بضعة أجيال، ثم نسوه وانتشروا في الجزيرة كلها، بل وصلوا إلى الشام أيضا. وعندما قربت البعثة النبوية فكّر قصي بن كلاب بن مرة بأننا لا نفي بالوعد الإبراهيمي؛ إذ كان آباؤنا قد أوصونا بالإقامة عند الكعبة وتطهير هذا البيت وخدمة الحجيج والطائفين والعبادة هناك، ولكننا انتشرنا هنا وهنالك ناسين الخدمة الموكلة إلينا من قِبل آبائنا. وقد استولت عليه هذه الفكرة لدرجة أنه قاد حركةً بين بني النضر تدعوهم إلى ترك أعمالهم والعودة إلى مكة للإقامة هنالك خدمةً للكعبة، إذ لا يليق بهم أن ينسوا الوعد الإبراهيمي من أجل مصالحهم الدنيوية غير مبالين بوصيته. فما دام إبراهيم قد فوّض إليهم خدمة الكعبة فمن واجبهم أن يرجعوا إلى مكة لخدمة بيت الله والحجيج. فرضي قومه بوعظه فعادوا

واجتمعوا كلهم في مكة. وكانت تضحية عظيمة منهم، فقد كانوا يعيشون في مراعي خصبة واسعة، وكانوا ذوي أعمال وتجارة وزراعة وغيرها من حِرف، ولكنهم كلهم تركوا أراضيهم وزراعتهم ومواشيهم وتجارتهم فجأة، وجاءوا وأقاموا في واد غير ذي زرع وليس به أي مصدر آخر للدخل. وعندي ليس في تاريخ العالم مثال هذه التضحية، حيث ترك القوم كلهم أعمالهم ومِهَنَهم وسكنوا في واد غير ذي زرع لمجرد أن أباهم إبراهيم أوصاهم بالبقاء هناك لخدمة قوم يأتون للحج والطواف وعبادة الله تعالى هنالك. كانت تضحية عظيمة حقًا، إذ اجتمعوا في مكة إيفاءً للوعد الإبراهيمي تاركين ديارهم وأعمالهم بعد أن تفرقوا هنا وهناك. وهذا هو سبب تسميتهم قريشا، فقد سبق أن ذكرتُ أن قَرَش يعني جَمَع من هنا وهناك. إذًا، فقريش هي تلك القبيلة التي اجتمعت في مكة تحقيقًا للنبوءة الإبراهيمة. إنهم لا يُسمَّوْن قريشا لكونهم غالبين على القبائل العربية الأخرى، أو لأنهم كانوا يأكلون غيرهم كما يأكل القرش الحيوانات البحرية الأخرى، إذ لم تنل قريش هذا العز والصيت بين العرب إلا قبيل بعثة الرسول ﷺ، أما قبلها فكانوا يعيشون مجاورين للبيت، دون أن تكون لهم أي غلبة على سائر القبائل الأخرى. فالمراد من قريش تلك القبيلة التي جمَعها قصي بن كلاب بن النضر من هنا وهناك وأسكنهم في مكة. وبتعبير آخر، يطلق اسم قريش على جزءٍ من أولاد إسماعيل لأنه جيء بهم من هنا وهنالك إلى الكعبة لخدمة بيت الله الحرام. فلفظ قريش يعني المجتمعين من هنا وهناك.

وهنا ينشأ سؤال: إن لفظ قريش هو اسم تصغير.. ومعناه مجموعة صغيرة من الناس اجتمعوا في مكة.. فلماذا سُمّي نسل إسماعيل عليه السلام مجموعة صغيرة؟

الجواب: أن بني إسماعيل كلهم كانوا مأمورين بالإقامة في مكة لعبادة الله وخدمة الذين يأتون للحج والطواف، ولكن بعد تفرقهم من مكة لم يرجع إليها للإقامة فيها إلا بنو النضر بن كنانة الذين كانوا مجموعة صغيرة من بني إسماعيل، فسُمّوا قريشًا للإشارة إلى أنهم مجموعة صغيرة اجتمعتْ عند بيت الله الحرام عاملين بوصية جدّهم إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وخدمة الحجيج. ولعلهم اختاروا هذه

التسمية -أي اسم التصغير- حثًّا للقبائل الأخرى على العودة إلى مكة والإقامة فيها، لكي يفكّر بنو إسماعيل الآخرون باستمرار أنه ما دامت جماعة قليلة منا قد أقامت هنالك متكبّدةً صنوف المشقّة والعناء، فحريٌّ بنا أن نقتدي بإخواننا هؤلاء، فنذهب إلى مكة ونقيم فيها لعبادة الله وخدمة الحجيج، عاملين بوصية جدّنا إبراهيم عليه السلام.

باختصار، لقد لبّى هؤلاء القوم نداء قصي بن كلاب وأقاموا في مكة، ولكن العرب ما كانوا يهتمون بالحج في البداية حتى يأتوا إلى مكة بكثرة وينتفعوا من بركات الكعبة، والدليل على ذلك هو مغادرة آل إسماعيل عليه السلام الكعبةَ رغم وصية جدهم بالإقامة هناك، ورغم النبوءات الإلهية العظيمة بصددها. لو كان الحجيج يأتون إلى مكة بكثرة لتيسرت لأهلها أسباب الرزق، فلم يضطروا لمغادرتها. فتركُهم مكة وانتشارهم في مناطق أخرى دليلٌ على أن العرب ما كانوا يأتون لحج الكعبة بكثرة عندها. انظر إلى مجاوري الكعبة اليوم، كم هي مُهينةٌ مِهْنتهم* التي يمارسونها لكسب لقمة العيش، إلا أنهم ليسوا مستعدين للتخلي عنها. فتركُ بني إسماعيل مكة دليل قطعي على أن قليلا من الناس كانوا يحجون في ذلك الوقت، فما كان أهل مكة يجدون لقمة العيش، فخرجوا منها وانتشروا في الجزيرة كلها. وعندما عادت جماعة قليلة منهم إلى مكة ثانيةً بتحريض قصي بن كلاب واجهوا نفس المشكلة. كان عدد الحجيج قليلا، وكان هؤلاء القوم ملازمين لمكة ولا يخرجون منها، فعاشوا في عسر لا يطاق، إذ لم يكن هنالك سبيل لرزقهم، حتى تعرّضَ بعضهم للجوع والفاقة، وصعب عليهم العيش بكرامة. إننا لا نملك إلا أن نثني على قريش، إذ تحمّلوا كل هذه الشدائد والصعاب ببشاشة، ولم يشتكوا قط.

لقد كانت بلا شك تضحيةً كبيرة أن يتركوا ديارهم وأعمالهم ومِهنهم وتجاراتهم وزراعاتهم ويقيموا مع أهلهم وعيالهم في واد غير ذي زرع يفتقر إلى

* لعل حضرته ﷺ يشير إلى ما كان المجاورون يفعلون في تلك الأيام حيث كانوا يطلبون الإكراميّات من الحجيج بإلحاح بغيض؟ (المترجم)

أسباب الرزق، ومع ذلك كان من الممكن أن يقول قائل: لم يكن في إقامة بني إسماعيل في مكة أية تضحية حتى يُثنى عليهم، فلعلّهم أقاموا هناك طمعًا في المال والعز لأن الناس كانوا يعظّمون مكة ويأتون إليها لحج البيت؛ ودرءًا لهذه الشبهة وإرساءً لشرفهم وعظمتهم قد هيأ الله ﷻ لهم فرصة التضحية ثانية، وذلك أنه لما رجع أبناء إسماعيل هؤلاء من مختلف أنحاء الجزيرة للإقامة في مكة ثانيةً لم يكن عندهم مصدر للرزق، إذ كان العرب قليلي الاهتمام بالحج، فتعرّض هؤلاء للجوع والفاقة حتى الموت. لقد كانوا كافرين وثنيين لا دين لهم، ومصابين بمفاسد كثيرة، ولكنهم كانوا متحلين بالمحاسن العجيبة؛ فكلما نفد الطعام عند أهل بيت منهم وساءت حالتهم، و لم يستطع مساعدتَهم الجيرانُ والأصدقاء الذين كانوا هم الآخرون فقراء مُدقِعين، فما كانوا يُلقون اللوم على زعيمهم قصيّ قائلين بأنه هو الذي أشار عليهم برأي خاطئ، فلنهاجر من مكة الآن، وما كانوا يتأسفون على إقامتهم هناك قائلين بأننا قد أخطأنا إذ أقمنا في هذا المكان الذي لا طعام فيه، بل كانت هذه العائلة تأخذ خيمتها في صمت وتذهب مع أهلها وأولادها إلى خارج مكة بمسافة ميلين أو ثلاثة -علمًا أنه لم يكن للعرب بيوت إلا قليلا جدا، بل لا يزال أهل البادية منهم يقيمون في الخيام حتى اليوم- وتعيش هنالك حتى الموت جوعًا، بعيدةً عن أقاربها وأصدقائها وجيرانها حتى لا يروا معاناتها (الدر المنثور للسيوطي).

وأرى أنه لا يوجد في تاريخ العالم مثال لهذه التضحية. عندما يضطر الناس للجوع والفاقة يهاجرون من ديارهم ساعين لتحسين معاشهم، بل يفقدون الصبر فلا يتورعون عن مدّ يد السؤال للآخرين. لقد وردت في كتب صوفية الإسلام طريفة أن وليًا من أولياء الله تعالى قرر ترك المدينة والإقامة في البرية عاكفًا على عبادة الله تعالى، وألا يأكل إلا ما يبعثه إليه البعض من الطعام، وإلا فيبيت جائعًا. وعندما علم معارفه وأصدقاؤه بذلك أخذوا يبعثون له الطعام صباحا ومساء لما كانوا يعرفون من صلاحه. وذات مرة لم يصله الطعام من أي أحد، ولعل معارفه ذهبوا لبعض أعمالهم، أو ظنّ كل واحد منهم أن الآخرين قد بعثوا له بالطعام،

فظل جائعا يومين أو ثلاثة حتى ضعف و لم يطق الجوع. فرجع إلى مدينته بصعوبة بالغة، وطلب الطعام من صديق له، فأعطاه ثلاثة أرغفة وشيئا من الطبيخ، فأخذها ورجع إلى كوخه في البرية. وبينما هو يمشي رأى كلب صديقه يتبعه، فقال في نفسه: إن لهذا الكلب حقا في هذا الخبز، فرمى إليه رغيفا، فأكله الكلب بسرعة ثم تبعه. ففكر الرجل أن الكلب لم يشبع ولذلك يتبعه. وعندي أن الكلب تبعه لأنه كان كلب صديقه، وكان يراه من قبل حين يأتي لزيارته، فالكلب حيوان ذكيّ ووفيّ جدًّا يحبّ ويعرف جيّدًا أصدقاءَ صاحبه الذين يترددون عليه كثيرا، ولكن الصوفي ظنّ بحكم تأثير التصوُّف عليه أن الكلب يطالبه بحقه في الخبز، فخاطب الكلبَ قائلا: إنك أحقُّ مني بهذه الأرغفة بلا شك، إذ تظل تحرس بيت صاحبك كل وقت، أما أنا فلا أزوره إلا على فترات. ثم ألقى رغيفا آخر إلى الكلب، فأكله بسرعة وتبع الصوفيَّ ثانيةً. فغضب الصوفيّ، وقال للكلب: يا عديم الحياء، لقد أطعمتُك رغيفين، ومع ذلك لا تتركني! والمرء إذا غضب تكلّمَ مع الحيوانات أيضا، حيث نرى الفلاحين عندنا يتكلمون مع ثيرانهم، وأصحاب الحمير يحدّثون حميرهم، وأصحاب العربات يكلّمون خيولَهم حيث يقضي أحدهم نصف الوقت في الحديث مع الركّاب ونصفه مع الحصان، فيقول له مثلاً: هيّا أَسرعْ فسوف أُطعِمك جيدا، وإذا تباطأَ سبَّه في غضب. و لم ينته الصوفي من كلامه حتى استولت عليه حالة من الكشف، فوجد الكلب واقفًا أمامه يكلّمه. علمًا أن الحيوانات والأرض والخشب وكل شيء يمكن أن يتكلم في الكشف، فلا غرابة في كلام الكلب. فوجده الصوفي يقول: أأنا عديم الحياء أم أنت؟ إنني لم أترك باب صاحبي قط مهما تعرضت للجوع والفاقة، أما أنت فذهبت وأقمت في البرية لعبادة الله تعالى، فتعرضت للفاقة ليومين فاستعجلت وعُدْت إلى المدينة. ثم زالت حالة الكشف عن الصوفي، فرمى الرغيف الثالث للكلب وتوجه للبرية. فما إن وصل إلى كوخه حتى جاء أصدقاؤه وغيرهم من القوم بالطعام وهم يعتذرون إليه بأنهم لم يستطيعوا خدمته منذ بضعة أيام ماضية. فقال لهم: لا عليكم، إنما أراد الله ﷻ بذلك اختباري.

قارِنوا هذه القصة بما تعرض له أهل مكة هؤلاء. كانوا مشركين، ولكن الله تعالى كان يدرّبهم ليكونوا أهلاً بأن يكونوا أمة محمد ﷺ. يا لها من تضحية قدّموها! كانوا يخرجون من مكة لمسافة ويضربون خيامهم هناك، ثم يموتون مع أهلهم وأولادهم جوعًا وفاقة، ولكنهم لم يكونوا يتركون مكة ولا يمدّون أكفّهم إلى الآخرين سائلين. وهذا يدل من جهة على حماسهم لخدمة الكعبة، ومن جهة أخرى يدل على عظيم قناعتهم، إذ كانوا لا يشقّون على الآخرين بالسؤال، وإنما كانوا يظلّون في خيامهم يصارعون الجوع جميعًا حتى الموت.

إن في ذلك درسًا لأبناء جماعتنا الذين يدّعون أنهم المؤمنون بما أنزل الله من تعاليم وأحكام، وأنهم الحَمَلَة لنوره في هذا العصر. وها إنني أوجّه خاصةً أنظارَ أبناء المسيح الموعود عليه السلام وأبناء أتباعه الخواص إلى واجبهم هذا. أرى أنه لم يتولد بعدُ فيهم ذلك الحماسُ للتضحية والإيثار في سبيل الدين الذي كان ينبغي أن يتولد فيهم نتيجة إيمانهم بالمسيح الموعود عليه السلام وانضمامهم إلى الأحمدية. إن خُطاهم جدُّ بطيئة، وحماسهم للتضحية والإيثار لا يزال ضعيفا جدًا، ومن المؤكد أننا بهذا المستوى لن نكون غالبين على العالم أبدا. فما لم يدرك كلٌّ منا أن الهدف الذي بايع ودخل مِن أجله في هذه الجماعة مقدَّمٌ على جميع الأهداف الأخرى، فلا يمكن القول إنه قدّم نموذجًا جيدا للإيمان. بل أرى أنه لا يجوز قطعًا لأبناء المسيح الموعود عليه السلام أن يباشروا أي عمل مِن شأنه أن يحول دون خدمتهم للدين، ومَن باشر عملاً كهذا عُدَّ من الذين يؤْثرون الدنيا على الآخرة. أما غيرهم من الأحمديين فعليهم أيضا أن يدركوا أن من واجبهم أن يتحلّوا بحماس لخدمة الدين بحيث إذا جاءهم نداء من الدين لبّوه تاركين أعمالهم كلها فورًا وانهمكوا في خدمته. إذا كان هؤلاء يباشرون الآن أعمال الدنيا فإنما لأن الدين لم يحتَجْ إلى خدمتهم بعدُ، ولكن حينما يحتاج الدين إلى نصرتهم فعليهم أن يتذكروا عندها أنهم قد بايعوا على أن يؤْثروا الدين على الدنيا. يجب أن يكون لهذا العهد معنى ومغزى. وأيًّا كان تفسيركم لهذا العهد، فلا بد لكم أن تؤثروا الدين على شيء من الأشياء في كل حال، فإذا كنتم تعنون بهذا العهد المالَ، فلا بد أن تؤثروا الدين على المال، وإذا كنتم تعنون به النفس فلا

بد أن تؤثروا الدين على النفس، وإذا كنتم تعنون به الخدمةَ فلا بد أن تؤثروا الدين على كل نوع من الخدمات. ما دام كل الأحمديين قد قاموا بهذا الإقرار والعهد، فمن واجبهم أن يفكروا ما هي الخدمة التي قدموها للجماعة بعد هذا الإقرار. إنهم يدَّعون أنهم يؤْثرون الدين على الدنيا، فأسأل: هل يوجد بينهم مَن ينفقون ٥١% من أموالهم في سبيل الدين؟ إن تقديمك الشيءَ يعني أنك تقدِّمه على ما سواه، فإذا كانوا يقدّمون الدين على الدنيا حقًّا، فيجب على كلٍّ منهم أن ينفق في سبيل الدين ٥١ روبية من مائة روبية يتقاضاها، وعندها فقط يُعَدّ من الصادقين. ولكن، هل يفعلون ذلك؟ هل هم يعملون في خدمة الدين ١٣ ساعة من ٢٤ ساعة في اليوم؟ وهل يقومون بالتضحية والإيثار فيقدمون الدين على الأهل والأولاد وغيرهم من الأشياء؟ وهل يؤْثرون الدين على الوطن أو على النفس؟ يجب أن يكون هناك مجال يمكن أن يقولوا إنهم قد آثروا فيه الدين على الدنيا. لو فكر كل أحمدي على هذا النحو، ثم لم يجد أي شيء أو مجال يؤْثر فيه الدين على الدنيا، فليعلمْ أنه مصاب بالنفاق إذ يدّعي بتقديم الدين على الدنيا ولكنه لا يعمل بحسب دعواه في أي مجال. فلا بد أن يكون لعهده معنى ومغزى. لا شك أن هذا العهد لا يفرض علينا أن نؤثر الدين على الدنيا في مجال واحد فقط، بل من واجبنا أن نؤثر الدين على الدنيا في كل مجال وفي كل أمر، ولكن الذي لا يمكن أن يفعل ذلك عليه أن يؤثر الدين على الدنيا في مجال واحد على الأقل حتى يستطيع القول إنه حاول جاهدا الوفاء بهذا العهد في هذا المجال. يجب أن يفي بهذا الوعد في ماله أو تجارته أو مهنته أو وطنه أو عمله أو وظيفته أو علاقته مع الأقارب والمعارف أو في مجال العبادة أو التضحية والإيثار، حتى يستطيع القول: "لقد قدّمتُ الدين على الدنيا في المجالات التي أُتيحت لي الفرصة فيها، وأما المجالات الأخرى فإني مستعدّ تمامًا لبذل جهدي للوفاء بعهدي فيها أيضًا". أما إذا لم يكن يفعل هكذا فليدرك أن ادعاءه بالإيمان مجرد نفاق ولن ينفعه شيئا.

هلا فكَّرتم فيما فعلتْ قريش؟ ألا تنظرون كم كانت تضحيتهم عظيمة، مع أنهم لم يكونوا حَمَلَةَ دينٍ حقّ، إنما كانوا عبدةَ أوثان لا دين لهم. إنهم لم يصبحوا عبئًا

على قومهم، بل قالوا لقد جئنا لوجه الله تعالى، ولا حقّ لنا أن يخدمنا قومنا في ضيقنا وشدتنا. فظلّوا يحملون خيامهم خارج مكة، ويموتون جوعًا: الابن أمام أبيه، والبنت أمام أمها، والزوج أمام زوجته، والآباء أمام أولادهم، والصديق أمام صديقه، والقريب أمام قريبه، ولكن لم تجرِ كلمة شكوى على لسان أيٍّ منهم، و لم يفكّر أحد منهم -رغم هذه المصيبة الهائلة التي حلت بهم- في مغادرة ذلك المكان. إن هؤلاء القوم لم يذهبوا إلى هناك بعد رؤية معجزة أو مشاهدة آية، و لم يجتمعوا هناك بعد الإيمان بوحي جديد، وإنما فكّروا أن جدّهم إبراهيم عليه السلام أوصاهم قبل ألفي سنة بوصية، فجاءوا إلى تلك البقعة عملاً بوصيته. لقد اضطروا للجوع والفاقة ولكنهم لم يتركوا ذلك المكان. لقد قبلوا الموت جوعًا ولكنهم لم يتركوا تلك البقعة. لقد عاشوا هناك سنوات في فقر وضيق وإفلاس، بدون طعام أو سبب معاش، ولكنهم قالوا سوف نموت ونفنى واحدا بعد الآخر ولكن لن نهاجر من مكة إلى غيرها. لا شك أنها تضحية عظيمة لا مثيل لها في تاريخ العالم حتما.

لقد استمرّ هذا الوضع حتى زمن هاشم بن عبد مناف -والدِ جدِّ الرسول ﷺ- فهو أدرك أن القوم سيشملهم الفناء إذا ما ظلّوا على هذا الوضع التعيس، فجمَع قومه وقام فيهم خطيبا وقال: إن الطريق الذي تتبعونه جيد في حد ذاته ولكنه اندفاعٌ وتهوّرٌ، ولن يحقق الهدف الذي أقمتم في مكة من أجله. ولو استمر هذا الوضع فسيفنى أكثركم، وتصبح مكة خرابا يبابا. لا شك أن ما تفعلونه عظيم من حيث الحماس والتصميم والعزيمة، ويستحق كل المدح والثناء، ولكنه عند التعقل لا نجده نافعًا. علينا أن نفعل ما يمكّننا من الإقامة في مكة وينقذنا من هذا الفناء أيضًا.

ولعل هاشم بن عبد مناف فكّر أنه لو استمر الوضع هكذا فإنه لن يترك انطباعًا حسنا عند القبائل الأخرى؛ إذ يقولون: "لقد جاء هؤلاء إلى مكة مجاورين للبيت، ولكنهم ماتوا جوعا وفاقة". وهذا سيقلّل من تعظيم الله تعالى في أعين الناس حيث يظنون أن لا خير في التضحية في سبيل الله تعالى، لذا فيجب أن نعيش هنا محافظين على كرامتنا عند الناس ونكون أحسنَ عيشًا من بقية القبائل. فقالوا له: لقد رضينا بما ترى. فقال: أرى أن نعيش في مكة، وفي الوقت نفسه نمارس التجارة لتحسين

حالتنا المادية. ما دمنا نسافر لأغراضنا المختلفة، فلِمَ لا نقوم برحلات تجارية تحسّن حالتنا الاقتصادية السيئة وتزيل ما بنا من ضيق وشدّة (الدر المنثور للسيوطي). إنه لم يقترح عليهم الزراعة، لأنه لم يكن في مكة أية إمكانية للزراعة، ولم يقترح عليهم التجارة في الدكاكين البسيطة، لأن ذلك سيحول دون خدمة الكعبة، إذ إن صاحب الدكان مضطر للبقاء فيه كل الوقت، فاقترح عليهم استثمار أموال القوم برحلتين تجاريتين سنويًا: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. لقد اقترح رحلة الصيف إلى الشام لأنها منطقة باردة نسبيًّا، ورحلة الشتاء إلى اليمن لأنها منطقة حارة نسبيًّا. واقترح أن يخرج مندوبو أهل مكة بأموالهم لاستثمارها في سفرين تجاريين سنويا، ويجب أن يكون هذا السفر من أجل التجارة فقط وأن يكون من أجل القوم كلهم. وهذا يعني أن هاشم بن عبد مناف هو أول من بدأ نظام الشركات التجارية في العالم، أو في الجزيرة العربية على الأقل. لا شك إن التجار يخرجون لتجارتهم بشكل فردي دائما في العالم، فيجلبون البضائع ويبيعونها بأرباح، أما أن يخرج مجموعة من التجار للتجارة المشتركة.. أي لاستثمار أموال القبيلة كلها.. فهذا لم يحدث قط في تاريخ الجزيرة العربية على الأقل إلا على يد هاشم بن عبد مناف. فرحّب القوم برأيه، وبدأت قوافلهم التجارية تخرج في هذه الرحلات، فكان كل شخص يسلّم ماله لهؤلاء الممثلين عن أهل مكة كلهم، وتحت إمْرَة أحدهم. كان الأغنياء منهم يبعثون أحيانًا عبيدهم أيضا في هذه الرحلات. فإذا خرج رجال هذه القافلة أخذوا من مكة بعض الأشياء فباعوها في طريقهم إلى الشام للقبائل العربية التي كانت تعتبرها تبركًا مكيًّا. فمثلا كانوا يملأون القِرَب بماء زمزم ويأخذونها معهم، وكانت القبائل العربية التي كانت تعظّم الكعبة تفرح كثيرا بأنهم وجدوا ماء زمزم وهم في بيوتهم، فكانوا يزدادون احترامًا لقريش. كما كانوا يأخذون معهم من مكة التمر وبعض المصنوعات الحديدية، إذ كانوا يجيدون الحدادة، فيبيعونها لمن حلّوا عندهم من قبائل؛ وبالمقابل يشترون منهم ما يمكن بيعه لأهل الشام، وعند العودة من الشام كانوا يشترون من هناك البضائع التي يبيعونها للقبائل في طريق عودتهم ولأهل مكة، وهكذا كانوا يربحون ذهابًا وإيابًا، كما

كانت مختلف بضائع الشام وغيرها من الأقطار العربية تصل إلى مكة. وفي الشتاء كانوا يخرجون إلى اليمن، الذي كان بينه وبين مكة أيضا مسافة لا بأس بها، آخذين معهم هدايا وتبركات مكية ليبيعوها للقبائل العربية في طريقهم، وكانوا يشترون من منتوجاتهم الجيدة ويصلون بها إلى اليمن ويبيعونها هنالك، وعند العودة من اليمن كانوا يشترون الصناعات المحلية والغلال ويبيعونها للقبائل في طريق عودتهم ولأهل مكة. فصار أهل مكة بسبب هذه الرحلات التجارية أغنى العرب في بضع سنين.

وعند عودة القافلة التجارية كان كل مستثمر فيها يُخرج نصف أرباحه لفقراء مكة، فإذا ربح أحدهم مائتي روبية مثلاً، احتفظ بمائة منها ووضع مائة في صندوق القوم. وهكذا كانت أموال لا بأس بها تتوافر للنهوض بالفقراء، فتحسن وضعهم في مدة وجيزة. وهناك شاعر عربي يمدح أهل مكة على صنيعهم هذا قائلا بأنهم يتحلّون بأخلاق سامية إذ يوزّعون نصف أموالهم على الفقراء، فيصبح فقراؤهم مثل أثريائهم. لا شك أنه قول مبالغ فيه، إذ يستحيل أن يوجد عندها في مكة أكثر من خمسة عشر أو عشرين ثريا، وكان عدد سكانها نحو خمسة عشر أو عشرين ألفا، ولو وزّع أثرياؤها نصف أرباحهم على فقرائها لما وجدوا مالا كثيرا يجعلهم مثل الأثرياء. بيد أنه لا يسعنا إنكار أن وضع أهل مكة قد تحسن نتيجة هذه الرحلات التجارية، فنجوا من الموت الذي كانوا يقاسونه نتيجة الجوع والفاقة. ولم تزل قريش على هذه السُّنّة إلى أن جاء الإسلام، فصاروا أكثر العرب مالا وعزا.

لقد ثبت من الأحداث المذكورة آنفًا أمرانِ: أوّلهما أن بني إسماعيل لم يقيموا في مكة محافظين على الوعد الإبراهيمي طويلاً، بل غادروها بعد حينٍ وانتشروا في شتى أنحاء الجزيرة العربية، ثم عادت مجموعة منهم وسكنت في مكة ثانيةً بدعوة من قصي بن كلاب، و قد سُمّي هؤلاء قريشا.. بمعنى أنها فئة كانت مشتتة من قبل ثم رجعت وأقامت في مكة بدعوةٍ من قصي. وثانيهما أن الفقر ضرَب هذه المجموعة أيضًا بقسوة بسبب إقامتهم في مكة، فحثَّهم هاشمُ -والدُ جدّ الرسول ﷺ- على الخروج في رحلات تجارية إلى اليمن والشام لتحسين وضعهم الاقتصادي. فلو اعتبرنا الفرق بين جيل وآخر ٣٠ سنة، فهذه الدعوة للعودة إلى مكة والإقامة فيها

مرة أخرى تكون قد بدأت قبل مولد الرسول ﷺ بنحو ٢٢٥ سنة. لا شك أن الناس يبلغون الستين أو السبعين أو الثمانين سنة من العمر، ولكن معدل عمر أي شعب يكون أقل منه دائما، فمثلا كان معدل عمر أهل الهند ٢٢ سنة من قبل، أما الآن فتحسن قليلاً وصار نحو ٢٨ سنة. أما في أوروبا فلو مات هناك أحد في سن الخامسة والثمانين لقالوا بأنه مات في شبابه وسنّ عمله، ومع ذلك يعتبر أكبر معدل للأعمار عندهم ٥٦ عامًا. وعلى العموم فإن معدل العمر في العالم هو ٤٠ سنة، ولكن الهند بلد فقير، لذلك فمعدل العمر فيها الآن نحو ٢٨ سنة. فلو افترضنا عمْر الجيل الواحد عند العرب ٣٠ سنة في ذلك الوقت، فتكون هذه الحركة قد بدأت قبل مولد الرسول ﷺ بـ ٢٢٠ أو ٢٢٥ عاما. وفارقُ الزمن بين إبراهيم عليه السلام والرسول ﷺ يتراوح ما بين ٢٢٠٠ و٢٣٠٠ عام في رأيي، بينما هي ما بين ٢٢٠٠ إلى ٢٨٠٠ عند الآخرين (معجم القرآن للدكتور غلام جيلاني برق ص٢٨-٣٠)، ولو أخذنا بالزمن الأقل وهو ٢٢٠٠ وحذفنا منه ٢٢٥ -وهو الزمن الذي بدأ فيه قصيٌّ بالدعاية للعودة ببني إسماعيل إلى مكة للإقامة فيها ثانية- لصار عندنا ٢٠٠٠ سنة. إذن، فقد ظلّ القوم غافلين عن واجبهم ألفي سنة.

والقاعدة أنه كلما قلّت الشقّة الزمنية، ظلّتْ ذكرى الآباء في قلوب الأبناء قويةً، وكلما زادت الشقّة الزمنية ضعفت ذكراهم في قلوب الأبناء. فكان ينبغي بحسب هذه القاعدة أن يكون الجيل الأقرب من زمن إسماعيل أكثرَ حفظًا للوعود الإبراهيمية؛ إذ القاعدة أن الابن يذكر الأب أكثرَ، أما الحفيد فيكون أقل ذكرًا لجده، وأما ابن الحفيد فأقلّ، أما بعد أربعة أجيال أو خمسة فينسى القوم أجدادهم، فإذا طال الزمن لم يعرفوا عن أجدادهم شيئا. وهذه الظاهرة تراها في كل الأمم الكبيرة، فمثلاً كم كانت تضحيات نسل فاطمة بنت الرسول ﷺ عظيمة ومحيرة في أول أمرهم، أما اليوم فتجد كثيرًا من "السادات" قد بعُدوا عن الإسلام بعدًا عظيمًا. ثم انظروا إلى المغول.. العِرق الذي تنحدر منه عائلتنا.. فإن باتو خان الذي كان من تركستان الصينية وكان جدّ المغول قد خرج كالطوفان واستولى على أوروبا كلها، أما قبلائي خان فاستولى على البلاد الشرقية حتى شواطئ البحر

الصيني (پنجاب کے مغل قبائل ص٨٩، وأردو دائرة معارف إسلامية تحت كلمة: قبلائي)؛ مما يعني أن قومنا قد وصلوا إلى حدود اليابان من ناحية، ومن ناحية أخرى داسوا أوروبا كلها تحت أقدامهم؛ أما اليوم فتجد كثيرا من المغول إذا رأوْا العدوّ ولوّا الأدبار بدلاً من مواجهته، ذلك لأنهم قد نسوا مفاخر آبائهم وإنجازاتهم. وأما الأفغان الذين جاءوا واستولوا على الهند كلها، فتجدهم اليوم قد تقلّص نفوذهم جدًا حيث يعيشون في منطقة صغيرة. ولو ظلّ هؤلاء متحلّين بعاطفة التضحية والإيثار كآبائهم لما صاروا لهذا المآل، ولما عاشوا محكومين بعد أن كانوا حاكمين.

باختصار، لو وضعنا القاعدة الطبيعية في الاعتبار فكان يُتوقع أن يكون تأثير ذكرى إبراهيم وإسماعيل على الأجيال الأولى أشدّ منه في الجيل الذي أتى بعد ألفي سنة، وكان متوقعًا أن ينمحي ذكرهما بين ذلك الجيل الأمي الجاهل، ولكننا نرى الواقع عكس ذلك، إذ دبت فيهم الحياة ثانية بعد ألفي سنة، فجاءوا وأقاموا في مكة مرة أخرى عملاً بوصية جدهم إبراهيم عليه السلام، ثم ظلوا هناك يعانون الشدائد جياعا عراة، ولكن لم يغادروا مكة. والسؤال هنا: أكان تولُّدُ هذا الإحساس فيهم للإقامة في مكة بعد انقضاء ألفي عامٍ صدفةً من الصدف؟ بحسب مبادئ علم النفس كان ينبغي أن ينمحي هذا الذكر بينهم كليةً بعد انقضاء ألفي سنة، ولكننا نرى أنه بعد ألفي سنة قام بينهم شخص ونادى بالعودة إلى مكة للإقامة فيها ثانية، فذهبت قبيلة من نسل إسماعيل وأقامت هناك وتولّت خدمة الكعبة رغم الظروف القاهرة. لقد قام هؤلاء بهذه الخدمة بحب وشوق لا نظير لهما، فكانوا يموتون ويرون أطفالهم وبناتهم وزوجاتهم يموتون أمام أعينهم مقاسين ويلات الجوع والفاقة، ولكنهم لم يتركوا مكة. يا ترى، لماذا تولد فيهم هذا الإحساس الشديد للبقاء في مكة بعد مضي ألفي سنة؟ ثم لماذا تولد هذا الإحساس القويّ خصوصًا في تلك القبيلة التي كان سيولد فيها الرسول ﷺ؟ إن التدبر يكشف لنا أن يد قدرة الله تعالى هي التي قد أشارت إليهم بأن الهدف الذي من أجله عمَر آباؤهم مكة قد حان أن يتحقق،

فعليهم أن يذهبوا ويسكنوا فيها. إذ كيف يُعتبر صدفةً رجوعُ هؤلاء إلى مكة بعد تيه ألفي سنة هنا وهناك، ثم كيف يعتبر صدفةً أن لا يرجع مِن هؤلاء القوم الكثيرين إلا تلك القبيلة التي سيولد فيها ذلك الموعود؟ يمكن أن يزعم العدو أن محمدا قام بدعوى زائفة والعياذ بالله، ولكن السؤال هنا: ما الذي جعل هذا القوم يجتمعون من كل حدب وصوب ليسكنوا في مكة قبيل بعثة هذا المدعي الكذاب؟! إنما اجتمعوا فيها لأن جدهم إبراهيم عليه السلام أوصاهم بالإقامة فيها وعمرانها، لأنها ستكون مركزا لدين عالمي. إن هذا التغير العظيم الذي أحدث في بني إسماعيل ضجة لدليلٌ على أن كل ما حدث إنما حدث بقدر الله تعالى تحقيقًا لوعده مع إبراهيم عليه السلام، فإنه كان قد دعا ربه قائلا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠). هذا الدعاء الإبراهيمي يبين أن ذلك الرسول سيظهر في مكة، وأنه سيخاطب أهلها أولاً؛ ولولا عمران مكة لما تحقق دعاؤه ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾؛ إذ مَن هم القوم الذين كان سيُبعث فيهم؟ وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا أيضًا أن يتلو هذا الرسول عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة؛ ولو لم تكن مكة عامرة فمَن هم القوم الذين كان سيتلو عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة؟ ثم دعا إبراهيم عليه السلام ﴿ويزكّيهم﴾؛ فلو لم يكن في مكة أحد فمَن هم القوم الذين كان سيزكيهم هذا الرسول؟ فالحق أنه لولا عمران مكة لما تحقق أيٌّ من أدعية إبراهيم عليه السلام. فثبت من هنا أن ما حدث لم يكن صدفةً، إنما وقع بحسب خطة الله ومشيئته عز وجل. يمكن للخصم أن يزعم أن محمدا قد قام بادعاء باطل – والعياذ بالله– ولكن من الذي يمكن أن يعتبر هذه الأحداث صدفة؟ لقد ظلّ هؤلاء القوم تائهين هنا وهناك ألفي سنة متناسين كل النبوءات التي أدلى بها إبراهيم وإسماعيل، وعندما حان ظهور النبي ﷺ دبّت الحياة فيهم فجأة، فقالوا: كيف ارتكبنا هذه الحماقة، وظللنا تائهين هنا وهناك كل هذه الفترة، مع أن جدنا كان قد أوصانا بالبقاء في مكة والعبادة هناك؟ لقد قال لنا جدُّنا إن كل رقيكم وتقدمكم منوط بالبقاء هناك، ولكنا انتشرنا هنا وهناك. فعادوا إلى مكة وأقاموا

فيها ثانية، ليس لأن مصنعًا أُنشئَ هناك، أو أن التجارة أصبحت رابحة هناك، أو أن الزراعة كانت مزدهرة هناك، وإنما لأن إبراهيم عليه السلام أوصاهم بالإقامة هنالك، فاجتمعوا هنالك عملاً بوصيته. فهل هذا كله صدفة، كلا بل كل ما وقع إنما وقع بمشيئة الله وقراره الأزلي.

ومن الممكن تماما عندي أن تكون روايات اليهود والنصارى أيضًا قد حدت بهم إلى مكة، إذ كان لقُصيّ بن كلاب الذي أسكنَهم في مكة ثانية صلات معهم، وليس غريبا أنه لما كثر بينهم الحديث عن قرب ظهور النبي المختون، سمع قصيٌّ من علمائهم أن هذا النبي سيظهر بين العرب، فاستنتج مما سمعه منهم ومن روايات قومه العرب أن هذا الموعود إذا ظهر بين العرب فلن يظهر إلا في مكة، فقال في نفسه أن الله تعالى ما دام سيُنزل هذه النعمة من أجلنا فلماذا لا نغتنمها ونُسكن قومنا في مكة حتى إذا ظهر النبي العربي آمنّا به وتمتّعنا ببركات الله النازلة معه. شأنهم في ذلك شأن أهل المدينة، فإنهم هم الآخرون كانوا قد سمعوا من اليهود عن اقتراب ظهور النبي الموعود، مما ساعدهم على تصديقه ﷺ؛ فقد ورد في التاريخ أنه لما أعلن النبي ﷺ دعواه وعارضه قومه، جاءت إلى مكة مجموعة من حجيج المدينة المنورة، وكان النبي ﷺ يقابل كل قبيلة أيام الحج ليخبرهم أنه جاءهم حاملاً لهم رسالة من الله تعالى بأن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، وتتحلوا بحسن الخلق. فكانوا يضحكون عليه ساخرين وهم يتغامزون قائلين: هذا هو المجنون الذي سمعنا أنه ظهر في مكة، ثم يولّون عنه مدبرين (تفسير الرازي).

وأي شك في أن النبي ﷺ كان مصابًا بالجنون -بالمعنى الروحاني- لنجاة العالم؛ إذ كان باخعًا نفسه حتى ينجوا من هوة الهلاك والدمار، ولو سمّاه أحد مجنونا من هذا المنظور الروحاني، فنقول: فليكُثُرْ مثل هؤلاء المجانين في العالم، لأن مثل هذا المجنون إنسان عظيم. ولكن القوم كانوا يذكرونه بهذه الأوصاف على سبيل العداء والمعارضة. كانوا يرفضون سماع كلامه، ولكنه ﷺ لم ييأس ولم يقنط، بل ظل يقابل كل قبيلة في موسم الحج لتبليغهم رسالة الله. وذات مرة جاءت من المدينة المنورة مجموعة من الحجاج، فقام بدعوتهم إلى الله تعالى. كانوا شرفاء، ثم إنهم كانوا

قد سمعوا عن قرب ظهور نبيّ، فبينما كان النبي ﷺ يبلغهم واقفا، قالوا له هلمّ نجلسْ في ناحية لنستمع إلى كلامك، فجلسوا جميعا فبلّغهم رسالة الله (السيرة النبوية لابن هشام: بدء إسلام الأنصار). فقالوا له: يقيم في بلدتنا قوم من اليهود، وإننا أكثر منهم عددًا، وأقوى منهم جانبًا في المعاهدات، ولكنهم يقولون لنا دائمًا: "إن نبيًا عظيما سيظهر في هذه البلاد قريبًا، وبواسطته سنكون غالبين عليكم، وسيظهر مِن بيننا وفي يثرب، ولذلك جئنا وأقمنا هنا، وسوف نزدهر ثانية بالإيمان به". ولكن يبدو من كلامك أن الله تعالى قد بعث بيننا بفضله ذلك النبي الذي يقول اليهود أنه سيظهر من بينهم؛ فقد لمسنا الصدق في كلامك ونرى أن العلامات التي يذكرها اليهود تتحقق فيك، ولكننا نخاف أننا إذا أخذنا القرار بأنفسنا فلعلّ قومنا يثورون علينا قائلين بأنكم قد استعجلتم في الإيمان به وتريدون أن تدفعونا نحن أيضًا إلى الخطأ نفسه، فاسمحْ لنا حتى نعرض كلامك عليهم، ثم نؤمن بك نحن وقومنا جميعًا بإذن الله تعالى. فرحّب النبي ﷺ باقتراحهم. فرجعوا إلى أهليهم وأخبروهم بالأمر. وحيث إنهم كانوا يسمعون من اليهود عن النبي القادم كثيرًا، فجاء اثنا عشر شخصًا منهم في السنة التالية للحج وآمنوا بالنبي ﷺ، وهكذا وصل الإسلام من مكة إلى المدينة المنورة (السيرة النبوية لابن هشام: العقبة الأولى ومصعب بن عمير) .

ومن الممكن تماما عندي أن قصي بن كلاب كان قد سمع من علماء اليهود والنصارى كلامًا كهذا، ففكّر أن الله تعالى يريد أن يفجّر ينبوع النبوة من بيتنا عن قريب ونحن تائهون هنا وهناك، فنصح قومه بالعودة إلى مكة والإقامة فيها للتمتع ببركات ظهور الموعود القادم.

لقد قلت من قبل إن يد الله تعالى هي التي قد أشارت لقصي بن كلاب أن يجتمعوا في مكة، بينما قلت الآن إنه سمع من اليهود عن قرب ظهور النبي الموعود وأنه سيظهر بين العرب، فاستنتج مما سمع منهم ومن روايات شعبه العربي عن الوعد الإبراهيمي أنه سيظهر في مكة، فهناك اختلاف بين الأمرين على ما يبدو. والحق أنه ليس ثمة أدنى اختلاف في الواقع، ذلك أن قصيًّا إذا فعل ذلك بناءً على ما سمعه

من روايات اليهود والنصارى فإنّ ما سمعه كان أنباءً إلهية، والأنباءُ الإلهيـــة أيـــضا بمنـــزلة يد الله التي ترشد الناس إلى الهدى، وإذا لم يكن قد سمع بهذه الأنباء منهم، فإن يد الله القوية هي التي ذكّرته قبل ظهور نبي العرب بنحو قرنين وربع ما كـــان قومه قد نسوه منذ ألفي سنة، فعادوا إلى صوابهم فرجعوا وأقاموا في مكة ثانية رغم تعرضهم لشتى المحن والشدائد. فسواء أجاء بهم بناءً على ما سمع من روايات اليهود والنصارى أو جاء بهم بدون سماع أي شيء منهم، فالحق أن كل مـــا تمّ إنمـــا تمّ بإشارةٍ من يد القدرة الإلهية، وهكذا صار قصيّ أداةً للتدبير الرباني لجمع قومـــه في مكة.

ثم إن خطة إرسال القوافل التجارية إلى الشام واليمن في زمن هاشم أيضا تبدو حلقةً من حلقات هذا التدبير الرباني. كانت المسيحية قد أخذت عندها في الانتشار في اليمن، أما الشام فكانت المسيحية هي الغالبة فيها، وكان اليهود قد هربوا مـــن الشام واستوطنوا شمال الجزيرة واليمن؛ فقد ذكرتُ من قبل -في السورة السابقة- أن ملك اليمن الحِمْيَري الذي أحرق عشرين ألف مسيحيّ كان يهوديا أو متعاطفا مع اليهود، مما يدل على أن اليهود كانوا قد هاجروا من الشام إلى اليمن. وكانت هاتان الأمتان.. اليهود والنصارى.. هما اللتان ستصطدمان بالإسلام مستقبلا. فأولاً جاء أبرهة من اليمن بنية الهجوم على الكعبة، ثم لما انتشر الإسلام أخـــذ نـــصارى الشام بمحاربته. إذن، فإن الله تعالى بكمال حكمته جعَل هاشم يقتـــرح رحـــلات الشتاء والصيف ليطّلع أهلُ مكة على أحوال اليهود والنصارى. إن اكتساب الرزق شيء، أما اختيار هاشم بن عبد مناف هذين البلدين خاصة للرحلات فهو أمر آخر تماما. كان بإمكانه أن يقترح عليهم مجرد التجارة، أما اقتراحُه خطة الرحلات التي تربطهم باليمن والشام، ثم جَعْلُ الله تعالى سورة قريش بعد قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾..... إلى آخر السورة، كل ذلك يبين بجلاء أن كل ما تم إنما تمّ بتخطيط رباني محكم. لقد أراد الله تعالى بذلك أن يكتـــسبوا الـــرزق، وأن يطّلعوا على أحوال أهل الشام واليمن الذين كان من المقدر أن يصطدموا بهـــم في

يوم من الأيام. وكما قلت لقد وقع هذا الصدام مرة قبل بعثة النبي ﷺ، ومرة ثانية بعد بعثته ﷺ.

وكان طبيعيًا أن يصاب مَن يسمع مثل هذا الكلام باستمرار بنوع من الرهبة والرعب، فيظن أن فيه شيئًا من الصدق حتما، وحيث إن أهل مكة كانوا يسمعون من اليهود والنصارى هذا الكلام باستمرار، فكانوا يقولون في أنفسهم أن أحدًا آتٍ حتمًا، مما كان يصيبهم بصدمة ويضرب على كفرهم بقوة، وبالتالي يُحدِث صَدْعًا في جدار كفرهم. فكلما سافروا وسمعوا من اليهود والنصارى أنباء عن ظهور النبي القادم ثم حكوها لأهليهم في مكة، تحرك القوم كلهم ونما عندهم الإحساس بقدوم نبي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جعلتْ أسفارُ أهل مكة إلى اليمن والشام اليهودَ والنصارى يستشعرون خطرًا مِن قبلهم يجب أن يُعدّوا له عُدّتهم لأن أنباء ظهور الموعود تشير إلى العرب.

باختصار، كان من حِكم الله تعالى البالغة وراء رحلاتهم الشتوية والصيفية أن تتكرر زيارات أهل مكة لليهود والنصارى فيسمعوا منهم الأنباء عن النبي الآتي، حتى إذا ظهر سهُل عليهم الإيمان به. وقد سبق أن ذكرت أن أهل المدينة إنما وُفّقوا للإيمان بالرسول ﷺ فقط لاتّصالهم واحتكاكهم باليهود، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(البقرة:٩٠).. أي أن اليهود يكفرون بمحمد ﷺ اليوم، مع أنهم كانوا من قبل يقولون للعرب إن نبيا سيُبعث قريبًا وسوف ننتصر به على أعدائنا. فثبت من هنا أن هذه الرحلات التجارية إلى الشمال والجنوب كانت تمكِّن أهل مكة الأمّيين من لقاء علماء اليهود والنصارى، فكانوا يطّلعون على أفكارهم وعقائدهم عن النبي الأخير. ومن أدلة ذلك ما ورد في الحديث أن أبا طالب لما ذهب بمحمد ﷺ في سفره إلى الشام رآه أحد الرهبان فقال: عليك أن تعتني بهذا الطفل، إذ توجد فيه علامات معينة، فلعله يكون إنسانا عظيما (السيرة النبوية لابن هشام، قصة بحيرى)، ولعل كلام الله عن العرب سيتحقق على يده. كان أهل مكة يسمعون مثل هذا الكلام باستمرار خلال رحلاتهم، وقد استعمله الله تعالى نفسه تمهيدًا لبعثة النبي ﷺ. فالحق أنه كان وراء

رحلات الشتاء والصيف هذه حكمةٌ ربانية عظيمة، وإلا فكَمْ كان صعبًا على الأمة التي لم يكن فيها وحي ولا شريعة وكانت بعيدة عن المناطق المتحضرة جدا بأن تؤمن بمحمد ﷺ بسماع دعواه، غير أنهم كانوا يسمعون كلام اليهود والنصارى عن النبي الموعود باستمرار خلال رحلاتهم، مما يُضعِف عقيدتهم الوثنية، فكانوا يقولون لعل ما يقال حق، ولعل الموعود آتٍ مِن بيننا. ومن أجل هذه الحكمة الربانية العظيمة الكامنة في هذه الرحلات، قال الله تعالى: اعجَبْ يا محمد لهؤلاء القوم الذين جاءوا واستوطنوا مكة و لم يريدوا الخروج منها رغم تعرضهم للموت جوعا وفاقة، ولكن انظرْ كيف يخرجون الآن إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفا بالتزام، كما يخرج الناس للصلاة بالتزام. من ذا الذي أولعَهم بهذه الرحلات؟ نحن الذين فعلنا ذلك. لو ظلوا عاكفين في مكة لما عرفوا شتى أنبائنا المتعلقة ببعثة محمد ﷺ، ولكننا جعلناهم مغرمين بهذه الأسفار فخرجوا إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاء بلا انقطاع. فإذا ذهبوا إلى اليمن سمعوا من أهله أن نبيًا على وشك الظهور، ولعله يولد بين العرب، وإذا ذهبوا إلى الشام سمعوا من أهلها أنه قد حان ظهور نبي، ولعله يبعث من بين العرب، وهكذا لم نَزَلْ نلقي في أسماعهم هذه الأنباء المتعلقة بظهور محمد ﷺ كيلا يتسرعوا إلى تكفيرك بمجرد سماع دعواك.

كم كان صعبًا على أهل مكة أن يؤمنوا برسول الله ﷺ نظرًا لبُعدهم عن وحي الله تعالى! ولكن الأنباء التي سمعوها من اليهود والنصارى جعلت بعضهم يصدّقون الرسول ﷺ بمجرد سماع دعواه. لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في مكة يوم أعلن الرسول ﷺ دعواه، بل كان خارجها، فنزل عند صديق له للاستراحة ظهرًا وهو عائد إذ كان الطقس حارا، فقالت أمَةٌ لصاحب البيت لقد أصبح صديقُ هذا مجنونًا للأسف. فنظر أبو بكر رضي الله عنه يمينًا وشمالاً، ثم علم أنها تتحدث عنه، فسألها: صديقُ مَن؟ فقالت: صديقك أنت، محمد. قال: ماذا حصل به؟ قالت: إنه يقول إن الملائكة تكلّمه. وكان أبو بكر على وشك الاستلقاء للاستراحة، ولكنه أخذ رداءه واستأذن صديقه للذهاب، فقال له: استرحْ قليلا فالطقس حار وستعاني في السفر. قال: لن أستريح الآن. ثم ذهب إلى النبي ﷺ رأسًا وطرق عليه الباب، ففتح ﷺ

الباب، فما إن دخل أبو بكر حتى سأل النبيَّ ﷺ قائلا: هل ادعيتَ أن الملائكة تنزل عليك وتكلّمك؟ فخطر في بال النبي ﷺ أن أبا بكر صديقه الحميم القديم، وأن عليه أن يشرح له الأمر حتى لا يصاب بالعثرة، فقال: يا أبا بكر، اسمعْ. فقاطعَه أبو بكر وقال: لن أسمعك، فقط أخبرْني أولاً هل قلتَ إن الملائكة تنزل عليك وتكلّمك؟ فقال له النبي: اسمعْ يا أبا بكر، إذ كان النبي ﷺ يخاف أنه لو أجابه بنعم فلعله يتعثر، فحاول أن يمهد لبيان دعواه، ولكن أبا بكر ناشده بالله وقال: لا تخبرني بشيء، بل أخبرْني فقط هل قلت إن ملائكة الله تنزل عليك؟ فلم يجد النبي ﷺ مناصًا بعد إصراره ومناشدته مِن أن يقول: نعم، إن ملائكة الله تنزل عليَّ وتكلّمني. فقال أبو بكر مِن توِّه: فاشهدْ أني بك من المؤمنين. يا رسول الله، كنت تريد أن تقلّل درجة إيماني بتقديم الأدلة على دعواك. لقد رأيت سيرتك وعرفت خصالك منذ مدة طويلة، فلا أحتاج بعدها لأي دليل على صدقك؛ فإني لا أؤمن بك بناءً على دليل آخر، إنما أؤمن بك بسببك أنت (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: باب ذكر أول من آمن بالله ورسوله).

يا ترى، ما الذي جعل أبا بكر يؤمن فورا؟ إنما سببه ما سمعه أهل مكة من اليهود والنصارى على التواتر من أنباء عن بعثته، ولكن لولا تلك الرحلات إلى الشام واليمن ما كان بوسع أهل مكة أن يطّلعوا على هذه الأنباء عن النبي الموعود، ولولا سماعهم لها مرة بعد أخرى لكانت دعوى النبي ﷺ بالنبوة أمرا كبيرا لهم، و لم يجد شخص مثل أبو بكر نفسه مهيّأً للتصديق به. وحيث إن أصواتًا تتناهى إلى آذانهم باستمرار أن في العالم رجالاً يدّعون مكالمة الله وأديانًا تدلي بالأنباء الإلهية، كما أنهم كانوا يسمعون من اليهود والنصارى بكثرة أخبارًا عن قرب بعثة نبي من بين العرب خاصة، وكانت آذانهم تسمع هذا كثيرا، فمهد كل ذلك الطريق لتصديقهم بالرسول ﷺ.

فالحق أن رحلات أهل مكة إلى اليمن والشام كانت إرهاصًا لبعثة الرسول ﷺ، إذ كان القوم يهيَّئون بها لتصديق الرسول ﷺ، ومن أجل ذلك قد جعل الله تعالى سورة قريش بعد سورة الفيل.

التفسير: حيث إن موضوع هاتين الآيتين ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ واحد، فتفسيرهما معًا أنسبُ وأَولى، وهذا ما سأفعله. ونظرًا إلى مختلف المتعلقات المحذوفة للاّم في قوله تعالى ﴿لِإِيلاف﴾، وشتى المعاني للإيلاف، فيمكن تفسير الآيات بمعانٍ عديدة، وهي كلها ذات صلة فيما بينها.

فأول هذه المعاني: أننا دمّرنا جنود أبرهة وجعلناهم كعصف مأكول لكي نجعل قريشًا مغرمين برحلات الشتاء والصيف. وهذا المعنى يركّز على أن الحفاظ على الرحلتين كان جزءا من الخطة الإلهية؛ فلأن حكمة الله تعالى كانت تريد استمرار الرحلتين، فأهلك أبرهة وجنوده. غير أني قد قلت سلفًا أن هذا لا يعني أن الله تعالى قد دمرهم لهذا الغرض فقط، بل هو أحد الأغراض وراء تدميرهم؛ ذلك أن الفعل يتم لعدة أهداف أحيانًا، وقلت مرارًا بأنه كان لهذا التدمير أهداف عديدة؛ منها الحفاظ على هذه الرحلات. وقد قلت قبل قليل إن أكبر أسباب الحفاظ على رحلاتهم الصيفية والشتوية هو أن نبوءات بعثة الرسول ﷺ كانت محفوظة عند اليهود والنصارى، ولكن نبوءات إبراهيم عليه السلام المتعلقة بمجيئه ﷺ لم تكن محفوظة عند أهل مكة، بل كانوا قد نسوا معظمها بمرور الزمن الطويل، فكان ضروريا أن يُذَكَّروا بها بالاحتكاك بتلك الأمم.

علمًا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن نبيًا تشريعيا، بل كان تابعًا لنوحٍ عليه السلام الذي كان نبيًا تشريعيا. نحن لا نتحدث هنا عن الشرائع التي نزلت في البلاد الأخرى، إنما نتحدث هنا عن الأمم التي انحدر منها بنو إسرائيل مباشرة، وكان نوح نبيًا تشريعيًا فيها بينما كان إبراهيم تابعا لشريعته، كما كان موسى نبيًّا تشريعيًّا، وكان عيسى تابعا له. كان نوح أول نبي في سلسلته، وكان إبراهيم آخر نبي فيها، مثلما كان موسى أول نبي في السلسلة الإسرائيلية، وكان عيسى آخر نبي فيها. وإلى هذا الأمر قد أشار الله تعالى في قوله ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من جماعة نوح و لم يكن نبيا مستقلا، بل كان حلقة من تلك السلسلة النبوية النوحيّة، ولذلك لم يأت بشريعة جديدة. ويتضح من مطالعة التوراة أن

إبراهيم عليه السلام لم يأت بشريعة مستقلة، أما موسى عليه السلام فكلما جاء ذكره ذُكـــرت شريعتُه أيضا. وحيث إن إبراهيم لم يكن نبيا تشريعيا، فاستمر العمـــل في زمنـــه بشريعة نوح عليهما السلام.

أما بعد إبراهيم فبدأت النبوة أولاً في بني إسحاق ثم في بني إسماعيل رغم كون إسحاق الابن الأصغر لإبراهيم، ذلك لأنه كان من المقدر أن يكون محمد ﷺ هـــو النبي الأخير وأن يكون من بني إسماعيل. كان هناك وعود ربانية لإبراهيم بمجـــيء الأنبياء والملوك في نسل ابنيه كليهما (التكوين ١٧: ٦ -١٦)، ولو بدأت النبـــوة أولاً في بني إسماعيل لما تحقق وعد النبوة في بني إسحاق بمجيء خاتم النبيين في بـــني إسماعيل، إذ كان محالاً أن تبدأ بعد خاتم النبيين سلسلة نبوةٍ جديدة، ومـــن أجـــل ذلك بدأت النبوة في أولاد إبراهيم ببني إسحاق لكي ينتهي دورهم، ثم تبدأ سلسلة نبوة بني إسماعيل، لأن نبيَّ بني إسماعيل كان سيظهر بصفته خاتَمَ النبيين.

وقد ظهر موسى في سلسلة بني إسحاق بعد إبراهيم بفترة تتراوح ما بين أربعة إلى ثمانية قرون بحسب مختلف التواريخ والتقديرات، ولكن لما كان الفاصل الـــزمني بين عيسى ونبينا ﷺ ستة قرون فيمكن القول قياسًا عليه أن الفاصل الـــزمني بـــين إبراهيم وموسى أيضًا كان ستة قرون، ثم قياسًا على ذلك يمكننا القول أن الفاصل الزمني بين نوح وإبراهيم هو ١٤ قرنا كما كان الفاصل الزمني بين موسى وعيسى ١٤ قرنا.

والمهم، لقد ظهر موسى بعد إبراهيم بستة قرون، واستمر العمل بشريعة نوح في تلك الفترة كلها، ولما انمحت شريعته تماما بمرور الأيام نزلت شريعة جديدة في بني إسرائيل على موسى، أما بنو إسماعيل فلما كان من المقدر أن يكون النبيّ الموعـــود لهم خاتم النبيين ويظهر عند انتهاء السلسلة الموسوية، فلذلك نزلت الشريعة في بني إسحاق من جديد، مما ساعدهم على تذكُّر الأنباء المتعلقة بالنبي الموعود. أما بنـــو إسماعيل فلم تنـــزل فيهم شريعة جديدة، فظل جانب الدين يضعف فيهم باستمرار حتى انمحت الشريعة من بينهم كلية. كانوا يعيشون في البراري والفلوات منعـــزلين عن باقي الأمم، ثم كانوا غير متعلمين يجهلون القراءة والكتابة لدرجة أنهم ما كانوا

يقدِّرون الشخص الذي يعرفهما. لم يكن في مكة كلها إلا ٥ أو ٦ أو ٧ أو ١١ شخصًا يعرفون القراءة والكتابة بحسب مختلف الروايات، ولكن ما قيمة هذه الأعداد من المتعلمين في مدينة يتراوح عدد سكانها ما بين ١٥ و ٢٠ ألفا؟ ولم يسمح القوم لهؤلاء بالتعلم إلا من أجل المراسلة مع الدول والحكومات الأخرى وكتابة المعاهدات معها.. أي أنهم ما سمحوا لهم بالتعلم إلا من أجل الضرورة القومية، وإلا فما كانوا يرونه عملا محترما؛ إذ كانوا يرون أن القراءة والكتابة تُضعف الذاكرة. وهذا صحيح إلى حد ما، إذ إن القراءة تُضْعِف الرغبةَ في الحفظ. الواقع أن العرب كانوا مشغوفين بالأدب. إنهم لم يكونوا متعلمين، ولكنهم كانوا يحفظون آلاف الأبيات، وقوة ذاكرتهم راجعة إلى عدم القراءة. ولكنهم كانوا لا يستطيعون حفظ الأمور من خلال الكتابة لفقدان التعليم بينهم، ولذلك انعدمت شريعة نوح عليه السلام من بينهم حتى نسوا نبوءات إبراهيم وتفاصيلها المتعلقة ببعثة النبي القادم. لا شك أن تلك النبوءات كانت عندهم، ولكن تفاصيلها غابت شيئا فشيئا بسبب جهلهم وطول الزمن. كانوا يعلمون فقط أن جدهم إبراهيم عليه السلام قد أسكنهم في مكة إذ كان رقيهم منوطًا بالبقاء هناك. شأنهم في ذلك شأن أبناء قبيلة (ساهنسي) في بلادنا الذين يقولون إن آباءنا قد تنبأوا بأننا سنحكم الهند في يوم من الأيام، ولكنهم لا يذكرون أي علامات ولا آثار ولا تفاصيل تحدد زمن تحقق هذه النبوءة المزعومة. فكان أهل مكة يعلمون فقط أن جدهم إبراهيم قد أسكنهم في مكة لأن تقدمهم موقوف على إقامتهم فيها، ولكنهم كانوا قد نسوا ما أدلى به نوح وإبراهيم من أنباء عن ظهور النبي الموعود لهم. هذه الأنباء وتفاصيلها كانت محفوظة عند اليهود والنصارى، ولذلك لما رأى الله تعالى أنهم جاهلون ولم يبقَ عندهم شيء من شريعة نوح وإبراهيم، هيّأ الأسباب لاحتكاكهم واتصالهم باليهود والنصارى، فألقى في قلب هاشم بن عبد مناف فكرة خروج القوافل التجارية لقريش إلى اليمن والشام لكي يتحسن وضعهم الاقتصادي، ويتمكنوا من الاتصال باليهود والنصارى، فيطّلعوا -مرة بعد أخرى- على الأنباء المتعلقة بظهور محمد ﷺ.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ هو: اعجبْ يا محمد كيف ألقى الله تعالى في قلوب قريش حبَّ رحلات الشتاء والصيف.. أي كيف حفَّزهم على هذه الأسفار. وهذا المعنى مختلف عن المعنى الذي ذكرتُه من قبل، إذ المعنى السابق هو أننا حفزناهم على رحلات الشتاء والصيف لنهيئهم للدخول في دين محمد ﷺ، أما هذا المعنى فيشير إلى حكمة أخرى، وهي أننا جعلنا هاشما يشير على قريش بأنهم إذا لم يخرجوا للأسفار التجارية فسيموتون جوعًا، ويصبحون أذلةً بين الأمم الأخرى. فنحن الذين دبّرنا لرحلاتهم في الصيف والشتاء، إذ لم يكن عندهم إيمان حقيقي، إنما ظلوا مقيمين هنالك بسبب طقوسهم وعاداتهم الشعبية فقط، ولو استمر هلاكهم جوعًا وفاقة هكذا فترة أطول، فكان هناك احتمال أن يضطروا للهجرة منها ثانيةً، لذلك يقول الله تعالى هنا ما معناه: "نحن ألقينا خطة الرحلات التجارية في قلب هاشم ليظل أهل مكة مقيمين فيها"، وإلا فإن التاريخ يكشف لنا أن آلاف الشعوب هاجرت من بلد إلى آخر من أجل معاشها. فهؤلاء الآريون الذين يدّعون اليوم أنهم أصحاب الهند الأصليين، قد هاجروا من التبت والصين وغيرها من المناطق واستوطنوا في الهند (تمدن هند ص٢٤٠)، بينما هاجر بعضهم من ديارهم الأصلية واستوطنوا في أوروبا. أما الشعوب المغولية فبعضها ذهبت وأقامت في تركيا وبعضها في فنلندا، كما تجد المجرَ مليئةً بالمغول والأتراك، ثم إن المغول يوجدون في المناطق الواقعة شمال الصين (أعني منغوليا وغيرها)، بل يرى البعض أن منغوليا هي البلاد الأصلية للمغول (أردو دائرة معارف إسلام، تحت كلمة: مغل)، ومنها انتشروا حتى جاء بعضهم واستوطنوا الهند. والحال نفسه بالنسبة إلى الأفغان الذين نناديهم في الهند باسم "خان صاحب"، فقد جاءوا من بلدهم أفغانستان بحثًا عن لقمة العيش؛ بعضهم لتحسين وضعهم الاقتصادي وبعضهم فرارًا من ويلات الجوع. إذنْ فهناك آلاف الشعوب والأمم التي خرجت من بلادها، واستوطنت بلادا أخرى لأسباب معيشية، ولولا خروج أهل مكة في الرحلات التجارية فكان من الممكن تمامًا أن يضطرهم ضيق المعاش إلى مغادرتها. لا شك أن قصي بن كلاب جاء بهم وأسكنهم

هناك مرة أخرى، لكن كان من الوارد أن يخرجوا من مكة ثانيةً لنفس المشاكل المعيشية التي اضطرهم للهجرة منها أول مرة. لم يكن عندهم يقين بالله تعالى، ولم يكن أمامهم آيات ومعجزات، وما كانوا يعرفون الله تعالى، بل كانوا يعبدون الأصنام ليل نهار، ومع ذلك ظلوا مقيمين هناك. أليس قدر الله هو الذي جعلهم يقيمون هنالك ولا يخرجون منها رغم الظروف القاهرة، ثم أخيرًا حفَّزهم على الرحلات التجارية ضمانًا لرزقهم؟ فجعل فئة منهم تخرج في هذه الرحلات لتكسب الرزق لهم ولمن خلفهم، حتى أصبحوا أحسن معيشة من القبائل الأخرى. لم تكن هذه الرحلات طويلة، إنما كانوا يرجعون منها بعد شهرين أو ثلاثة ليعيشوا باقي الأيام في مكة. ثم لم يكن أهل مكة كلهم يخرجون للتجارة، بل يخبر التاريخ أن قوافلهم التجارية كانت تضم ٢٠٠ أو ٣٠٠ شخص من بين سكانها البالغ عددهم ١٥ أو ٢٠ ألفا، وقد كان عدد الشباب منهم ما بين ٣ و ٤ آلاف، ولو أضفنا إليهم الشيوخ لصار عددهم ٥ أو ٦ آلاف، الذين لم يكن يخرج منهم في القوافل التجارية إلى الشام أو اليمن إلا ٢٠٠ أو ٣٠٠ (تفسير الرازي). أما الباقون فيظلون في مكة لخدمة الذين يأتون للعمرة وغيرها. لقد ورد في الحديث صراحة أنه لم يكن كل أهل مكة يخرجون في السفر، حيث ورد عن أثرياء مكة أنهم كانوا يقضون الشتاء في مكة والصيف في الطائف، لأن الطائف منطقة جبلية باردة (جامع البيان للطبري). إذن، فلم يكن يخرج في هذه الرحلات التجارية إلا جزء من سكان مكة، ولكن هذا السفر كان يضمن المعيشة للجميع، وكانوا يقومون بخدمة الكعبة.

لما حان وقت تعليم سيد مير محمد إسحاق المحترم الذي يصغرني بسنتين إلا ربع السنة، ذهب أبوه -وهو جدّي لأمي- لاستشارة الخليفة الأول ﷺ، فأشار عليه أن

يعلّمه الدين قائلا: لقد علّمتَ أحد ابنيك الدنيا●، فعلِّمْ ابنك هذا الدينَ. فقال جدي المرحوم مِن عنده –أو بناءً على ما قالته جدتي بحسب رأيي: إذن، سيعيش هذا على لفاظات مائدة أخيه. فقال الخليفة الأول ﷺ: إن الله تعالى يرزق البعض بسبب البعض، فلماذا تقول إنه إذا قام بخدمة الدين عاش على لفاظات مائدة أخيه، بدل أن تقول إنه إذا خدم الدين فإن الله تعالى سيبارك بسببه في رزق أخيه؟ ثم حكى له قصة سيدنا أبي هريرة ﷺ بأنه لما أسلم أحبَّ البقاء في مجلس الرسول ﷺ لسماع كلامه، فكان يظل جالسًا في المسجد ليلَ نهارَ لكي يسمع كلام الرسول ﷺ حين يخرج من بيته. ولكثرة ما رواه أبو هريرة من أحاديث يظنّ الناس أنه صحابي قديم، مع أنه لم يُسلِم إلا قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات، ومع ذلك كان أكثر رواية للحديث من الجميع (أسد الغابة ج٥ ص٣٢٢). ولعل هذا السبب في أن الناس لا يعرفون الصحابة القدامى ولكنهم يعرفون أبا هريرة، حيث يرد في الحديث مرارا "عن أبي هريرة" و"قال أبو هريرة". باختصار، قد أسلم أبو هريرة متأخرا جدا، ولكنه كان متحمسًا لتعلم الدين، فلما آمن صمّم على البقاء في مجلس الرسول ﷺ كل الوقت قائلا في نفسه: لقد سمع الآخرون الكثير من كلام الرسول ﷺ وأما أنا فتأخرت في الإيمان به، فلن أغادر مجلسه أبدا. فكما أن قريشا جاءت إلى مكة و لم تتركها، كذلك جاء أبو هريرة ولازم المسجد وتعهد أن يقوم بخدمة الدين كيفما استطاع ولن يقوم بأي عمل دنيوي. وكان له شقيق قد أسلم، فظل يُحضِر له الطعام إلى المسجد فترة من الزمن لقوة إيمانه. علمًا أن طعام العرب كان بسيطا جدا، إذ كانوا يأكلون بضع تمرات ويشربون قليلاً من الماء، أو يتناولون قليلا من اللحم المجفف ويشربون بعض الماء، ويعتبرونه غذاء كافيا لهم، (ابن ماجه، كتاب الأطعمة). فلم يكن صعبًا على شقيق أبي هريرة إطعامه، ولكن حماسه خمد

● يقصد بالابن الأول حضرة سيد مير محمد إسماعيل ﷺ الذي صار طبيبا، وكان من العارفين الربانيين، أما حضرة سيد مير محمد إسحاق ﷺ فصار من كبار العلماء الربانيين وكان أستاذا لحضرة مولانا جلال الدين شمس ولحضرة مولانا أبي العطاء الجالندهري رحمهما الله. (المترجم)

بعد فترة وسئم إيصال الطعام له في المسجد -علمًا أن أبا هريرة كان من عائلة مسيحية وكانت أمه مسيحية- فجاء أخوه إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله، قُلْ لأبي هريرة أن يعمل ويكسب، فإنه يقضي كل النهار في المسجد ولا يقوم بأي عمل. فقال له النبي ﷺ: لعلك تُرزَق بسبب أخيك. وهذا ما ذكَّر به الخليفةُ الأول جدَّنا المرحوم، فقبِل نصحه وعلّمه الدين بدلاً من التعليم المادي.

إذن، فقد كانت تخرج مجموعة من أهل مكة في هذه القوافل التجارية لكسب الرزق، أما باقي القوم فيمكثون في مكة، فكان الله تعالى يبارك في تجارة أهل القافلة، فكانوا هم والباقون من أهل مكة يعيشون على ما يربحون؛ إذ كانوا يوزِّعون أرباحهم على الآخرين. وهذا العمل لم يكن شيئا عاديا، فكم حالة كهذه تجد في الدنيا؟ لو كان هذا تدبيرا بشريا محضا، فيجب أن نرى في الدنيا من يعملون مثلهم. من المستحيل أن نجد مثيلاً لأهل مكة في هذا المجال. خذوا جماعتنا مثلاً، فكم منهم يلبّون نداءنا لنذر الحياة لخدمة الدين؟! إنهم يدَّعون أنهم هم مصداق قوله تعالى ﴿وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾(الجمعة:٤)، وأنهم الجماعة الموعودة عند البعثة الثانية للرسول ﷺ، ولكن كم منهم ينذرون حياتهم لخدمة الدين؟ إن الاستهانة بإنجاز الآخرين سهل، أما الاعتراف بالحقيقة فشيء آخر. يمكن لقائل أن يقول أن ما فعله أهل مكة شيء بسيط، ولكن السؤال: كم من الناس يفعلون اليوم ما فعل أهل مكة؟ أو كم منهم مستعدّون للعمل مثلهم؟ عندما اكتشف كولومبس أمريكا أخذ الناس يسخرون منه حسدًا ويحتقرون إنجازه، فحيثما ذهب طعنوا فيه قائلين: يقال إن كولومبوس قام بإنجاز كبير! لقد أبحر في سفينته فوجد أمامه بلدًا، فأي اكتشاف هذا؟ كان كولومبوس ذات مرة في مأدبة طعام حضرها أناس كثيرون، فأخذوا يستهزئون به محتقرين اكتشافه، فأخرج من جيبه بيضة وتحداهم أن يثبّتوها طوليًّا على الطاولة، فحاول بعضهم باذلين كل ما في وسعهم ولكن بدون جدوى، فأخرج كولومبس من جيبه إبرة وثَقَبَ بها البيضة، وأراق شيئًا من مائها اللزِج على الطاولة، ثم ثبَّت به البيضة. ثم توجه إليهم وقال: كنتم تزعمون أن كولومبوس أبحرَ ناحية أمريكا فاكتشفها، ولكن لم تتح لنا هذه الفرصة ولذلك لم

نكتشفها. وكنت قد منحت لكم الآن فرصة تثبيت البيضة على الطاولة ولكنكم فشلتم في ذلك. (Admiral of The Ocean Sea, V. 1 P. 349).

فالواقع أن إنجاز شيء صعبٌ، وأما الاستهانة بإنجاز الآخرين فسهل جدًا. لو كان هذا الأمر بسيطا فلماذا لم يفعل أحد في العالم ما فعل أهل مكة؟ هل توجد في الدنيا قرية يعمل أهلها ما عملت قريش، فيكسب بعضهم الرزق ليطعموا البقية قائلين لهم: امكثوا مكانكم مطمئنين، فنحن نكسب لكم ونطعمكم. كلا، بل إن ما رأيناه هو أن بعض عديمي الحياء من الأحمديين أيضًا يقولون بمنتهى الجسارة: ما قيمة هؤلاء الدعاة! إنهم لا يعملون مجانا، بل يأخذون رواتب. لم لا يقول أحد لعديمي الحياء هؤلاء: لا تعملون للدين مجانا، ثم لا ترضون لأحد أن يعمل للدين مقابل راتب، فمن ذا الذي سيعمل له إذن؟ لا شك أنه سيصبح مهملا. الحق أن الدعاة أيضا يستطيعون كسب رزقهم مثل الآخرين، والزعم أنهم إنما توجهوا إلى الدين لأنه ما كان بوسعهم بسبب فقرهم أن يتعلموا أو يحرزوا رقيًا ماديًا، لهو زعمٌ باطلٌ ويدل على جهل صاحبه. كان والد الدكتور الشاعر "إقبال" إنسانًا بسيطا جدا إذ كان يصنع القلانس، ولكن صار أحد أبنائه مهندسًا بينما صار الآخر علامةً دكتورا. وكان السير سيد أحمد خان- مؤسس جامعة عليكره الشهيرة في الهند- شديد الفقر، ولكنه تقدّمَ في الدنيا ونال من العز ما نال (حيات جاويد ص٩٥). فالقول إن الدعاة توجّهوا إلى الدين لأنهم ما كانوا قادرين على التقدم في الدنيا قولٌ باطل تماما، إذ هناك أمثلة كثيرة للفقراء الذين أحرز أولادهم مكانة مرموقة في الدنيا.

ثم إن الذي قد أثبت جدارته في الدين يستطيع أن يثبت جدارته في الدنيا أيضا، لكنه آثر العمل لله تعالى مُعرضًا عن الدنيا وزُخرفها.

الواقع أن البعض يثيرون هذا الاعتراض على دعاتنا حسدًا وغضبًا حين يقال لهم: لماذا لا تخدمون أنتم الدين. والحق أن طعنهم هذا هو منتهى الوقاحة.

فالقول إن أهل مكة إنما بدأوا رحلة الشتاء والصيف لتحسين حالتهم الاقتصادية أو معيشتهم وليس في ذلك أية تضحية، لقولٌ يدل على قلة التدبر في الأحداث.

فإذا كان كل إنسان يستطيع ذلك كما يزعمون فالسؤال هو: لماذا لم تفعل الأمم الأخرى ما فعلتْه قريش؟

الواقع أننا لو اعتبرنا فعلهم هذا نتيجة ميزة ذاتية فيهم، لكان معنى ذلك أنهم كانوا أكثر صلاحًا من أي جماعة أخرى، إذ فعلوا -مع كونهم كافرين لا دين لهم- ما لم يفعله كثير من المسلمين، بل كثير من جماعتنا. فهل من شك في أنهم سبقونا بل سبقوا صحابة الرسول ﷺ أيضًا في هذه التضحيات؟ فما داموا قد سبقوا صحابة الرسول ﷺ وأتباع المسيح الموعود عليه السلام في هذا المجال، فهل بقي مِن شك في أن إيلاف قريشٍ رحلةَ الشتاء والصيف كان آيةً أظهرها الله تعالى. لقد كان خطّةً سماوية كشفها الله تعالى. ما كان أهل مكة قادرين على ذلك، إنما كان هذا آية ربانية، بل كان معجزة من قدرة الله تعالى الذي أراد أن يبعث محمدا ﷺ في مكة. وهذا هو الأمر الذي أبرزه الله تعالى هنا بأن هؤلاء القوم -مع كونهم مشركين لا دين لهم وبعيدين عن الروحانية- قد فعلوا ما لم يفعله أي شعب في العالم قط. فكأن الله تعالى يقول إنهم لم يفعلوه بقدرتهم، إنما فعلوه بقدرته وتصرفه ﷻ. لم تكن تضحيتهم راجعةً إلى خصال ذاتية فيهم؛ لأن الناس رغم خصالهم العظيمة يتشتتون من مراكزهم هنا وهناك جراء ويلات الجوع والعطش، لذلك لا نملك إلا أن نسميه تصرفًا وتدبيرا من الله تعالى. غير أن هذا لا يعني ألا نتأسى بأسوتهم بحجة أن ما فعلوه لم يفعلوه بأنفسهم وإنما فعلوه بتصرف رباني. كلا، بل علينا أن نسعى جاهدين للتأسي بهم في هذه التضحية، وما لم نفعل ذلك لن نستطيع أن نُحدث انقلابا عظيما في الدنيا. لا شك أن الصحابة أحدثوا انقلابا عظيمًا في العالم، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلا من خلال تقديم تضحيات مماثلة للتي قدّمها أهل مكة. ولو أنهم بلغوا في تضحياتهم المستوى الذي بلغه أهل مكة كمعجزة من الله تعالى تمهيدًا لظهور محمد ﷺ، لأحرزوا رقيًا أعظم، ولأرسوا أُسس الإسلام بقوةٍ أكبر، ولقضوا على الكفر بشكل أشملَ وأكملَ. ومن واجب أبناء جماعتنا أن يتفحّصوا أنفسهم وأعمالهم. إنهم إذا لقوا الذين هم ليسوا من جماعتنا قالوا لهم: انظروا كم تضحّي جماعتنا، وكيف ينذر شبابها حياتهم لخدمة الدين؛

وذلك لأن هذا يزيدهم عزًّا أمامهم، وإذا خلوا إلى زملائهم قالوا فيما بينهم: ما قيمة هؤلاء الدعاة والمشايخ؟! فإنهم يعملون مقابل رواتب! والحق أنه لو بلغ أبناء جماعتنا كلهم ذروة المستوى الذي بلغه أهل مكة في التضحية لانتشرت دعوتنا في الدنيا انتشارا مذهلا. إنّ دخْل أفراد جماعتنا الشهري يبلغ في تقديري ما بين مليونين ونصف وثلاثة ملايين روبية، ولست مخطئًا في هذا التقدير إذ إنني عندما دعوتُ الجماعة إلى التبرع في "صندوق حماية قاديان" مؤخرًا، فقد بلغت وعودُ تبرعاتهم مليونًا وثلاثمائة وخمسين ألفًا بحسب دخلهم الشهري، مع أن كثيرا من أبناء الجماعة لم يساهموا في هذا الصندوق، إضافةً إلى أن البعض لا يذكرون لنا دخلهم الصحيح؛ فإني أعلم شخصًا هو أكثر مني مالاً وعقارا، ولكنه أقل مني تبرعًا بكثير، ولعل ذلك نتيجة خطأ في تقدير أملاكه أو ضعف إيمانه. المهم، إنني أرى أن دخل أبناء جماعتنا الشهري هو أكثر من مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين وليس أقل من ذلك. ولو قلنا إن دخلهم الشهري هو مليونين ونصف، ولو تبرعوا بـ ٥٠% من الدخل، لكان تبرعهم مليونًا وربع مليون، وإذا دفعوا ٥١% لكان تبرعهم مليونًا وثلاثمائة ألف. أما أهل مكة، فرغم كونهم مشركين غير مؤمنين، كانوا كلهم يُخرجون نصف دخلهم من أجل الضرورات القومية، أي ليوزَّع هذا المبلغ على فقرائهم لتظل مكة عامرة. لم يكن في قلوبهم إيمان، و لم يكن عندهم قرآن، و لم يكن عندهم خطة معينة للنهوض بالقوم، ولا هدفٌ سامٍ آخر، كل ما في الأمر أن قصيّ بن كلاب قال لهم إن أبانا إبراهيم قد أوصانا بالإقامة في مكة، فتعالوا نجتمع هنالك لتظل عامرة. فيا أبناء جماعتي، كم هو صغير هدفهم أمام هدفكم السامي؛ إذ تهدفون إلى فتح العالم، وتوطيد حكم محمد ﷺ بل حكم الله في الدنيا، ولكن انظروا كيف كان كل شخص من أهل مكة يعطي نصف أمواله لتحقيق هدفهم الضئيل قائلا: هذا المال لفقرائنا، كي لا يهاجروا من مكة فتظلّ عامرة، ولكنكم لا تقدّمون نفس التضحية لهدفكم الأسمى هذا. لو قمتم بمثل تضحيتهم لبلغ دخل جماعتنا السنوي ما بين ١٢ إلى ١٥ مليونا. ويمكنكم أن تقدّروا مدى إنجازاتنا

وسَعة دعوتنا لو بدأ أبناء جماعتنا يضحّون بقدر تضحية أهل مكة، أو نصفها أو ربعها.

لا جرم أن الصحابة قد قدّموا تضحيات جسيمة حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ولكن لا شك أيضًا أن المسلمين لم يستطيعوا الحفاظ على هذا المستوى العالي من التضحية الجماعية لزمن طويل. لقد نشبت الفتنة في عهد سيدنا عثمان ﷺ، ولنفترضْ جدلاً أنها نشأت لخطأٍ، ولكن هل يمكن إنكار أن الناس ثاروا عليه؟ إنهم لم يفكّروا أنهم مهدّدون بالهلاك الجماعي، وإنما فكّروا فقط أنهم على الحق وأنهم لن يتخلّوا عنه. لقد خرج على عثمان ﷺ بعضُ الصحابة أيضًا، وبغَضِّ النظر عما إذا كانت مكانتهم عالية أم لا، إلا أنهم كانوا يسمَّون صحابة في كل حال. ثم في عهد سيدنا عليّ ﷺ أيضا نرى أن الصحابة –مهما كانت درجتهم ضئيلة– خرجوا لحربه ﷺ. ولنفترضْ جدلاً أنه ﷺ كان على الخطأ تماما، ولنفترضْ أيضا أنه لم يستحقّ الخلافة قطعًا، ولكن خلافته ما كانت لتضرّ بالإسلام أبدًا، أما ضعفه فكان سيضرّ بالإسلام حتمًا، ولكنهم لم يدركوا هذا الأمر الواضح الجليّ، فأخذوا يحاربونه. كان الإسلام قد فتح نصف العالم في عهد الخليفتين الأوّلين، ولو ترك هؤلاء الأمورَ تجري بهدوء في عهد الخليفتين التاليين لانتشر الإسلام في باقي المعمورة و لم يقع ذلك الفساد والدمار والهلاك، ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم، إنما أصرّوا على أنهم على الحق وأنهم لن يتخلّوا عن حقهم، مع أنه كان من الصحابة مَن لم يُرِد الإشارة إلى حقه مخافة الفتنة. يروي عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أنه كان جالسًا في المسجد جلسةَ الاحتباء، إذ جاء معاوية وقام خطيبا فقال: أرى أن ابني يزيد أَولى بالخلافة بعدي، فهو يملك كل الكفاءات الضرورية للحاكم، ولذلك أُعلن خلافته بعدي، فهل بينكم مَن يرى أنه أحق منه بالخلافة؟ يقول عبد الله بن عمر: فحَلَلْتُ حِبوتي لأقف وأقول له: إن الأحقّ بهذا المنصب مِن ابنك مَن كان أبوه يحارب في سبيل الإسلام حين كان أبوك كافرا، وكان هو نفسه يحارب دفاعًا عن الإسلام حينما كنتَ كافرًا، ولكنني فكرتُ أن لا فائدة في ذلك

للمسلمين، وإنما يزيدهم فرقةً، ولا يحق لي أن أضر بالإسلام وأعيق ازدهاره لمصلحة شخصية (البخاري، كتاب المغازي).

هذه هي التضحية الحقيقية، ولو أن المسلمين كلهم -صغارهم وكبارهم- أدركوا هذا الأمر لما تعرض الإسلام للفُرقة التي هزّت قواعده. لا شك أنهم كانوا على الحق في كثير من الأمور، ولكن على الإنسان أن يضحّي بحقه في كثير من المواقف. إذا كان المرء يصبو إلى هدف أسمى فلا ينفعه عندها شيء إلا التضحية وحدها. ولو أن المسلمين عملوا بهذا المبدأ و لم يقدّموا مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة لازدهر الإسلام ازدهارا يفوق التصور. ولكن المؤسف أن بعضًا منهم في زمن الخليفتين الأخيرين لم يستطيعوا أن يقدّموا تضحية بمستوى تضحية أهل مكة التي كان نتاجها ظهور النبي ﷺ.

باختصار، لا نجد في تاريخ العالم كله مثالاً واحدا بأن مجموعة من الأمة ظلوا قرونًا يكسبون للآخرين وينفقون عليهم مغلقين في وجوه أنفسهم كل طرق الرقي الشخصي، وذلك لكي يظل البيت الذي يرونه بيت الله تعالى عامرًا. لا شك أننا يمكن أن نجد أمثلة فردية لمثل هذه التضحية، ولكن لن نجد مثالاً واحدا لجماعة قاموا بمثل هذه التضحية المذهلة المتواصلة فترة طويلة. والحق أن الدنيا لن تجد حلا لمشاكلها بدون تضحية كهذه.

هناك سؤال يفرض نفسه هنا: لماذا أنزل الله تعالى سورة (لإيلاف قريش)؛ فإن ما فعلتْه قريش قد ولّى زمنه، وجاء زمن محمد ﷺ، ومدحُ قريش هكذا سوف يزيدهم بطرًا وكبرًا إذ يقولون: كيف يسمّينا أحد كفارا وقد قدّمنا هذه التضحية الرائعة؟ فلماذا أثنى الله عليهم يا ترى؟

والجواب: إنما مدحهم الله تعالى حثًّا للمسلمين على التأسي بأسوتهم في التضحية. هناك مثل في لغتنا البنجابية مفاده: إذا أرادت الحماة وعظ كِنَّتِها لامت ابنتَها هي لتسمع الكِنّة كلامها فتتّعظ. كذلك قد أشاد الله تعالى هنا بتضحية قريش تنبيهًا للمسلمين بأن أمة كافرة وثنية جاءت وسكنت في مكة، وقدَّمت لعمرانها تضحية مذهلة غير مسبوقة في تاريخ العالم كله. لا شك أن الله تعالى هو

مَن وفَّقهم لذلك بقدرته وتصرفه، ولكن فضل الله عليكم عظيمٌ أيضا، فينبغي أن تتعظوا بهم وتقدِّموا في سبيل الإسلام مثل تضحيتهم.

خذوا مثلاً مركزنا في "قاديان"، فإن مجموعة من الأحمديين مقيمون هناك للحفاظ عليه●، وإن أبناء جماعتنا يكيلون لهم المدح أمام غير الأحمديين قائلين: انظروا ماذا فعلنا وماذا فعلتم! لقد هاجرتم جميعا من شرق البنجاب، أما نحن فلا نزال مقيمين هناك محافظين على مركزنا قاديان. ولكن قائل هذا الكلام لا يفكر أن الإقامة في قاديان ليس واجب الأحمديين الآخرين فقط، بل هذا واجبه أيضا. إنه يثني عليهم أمام الآخرين ولكنه إذا دُعي لهذه التضحية تهرّبَ، مما يوضح بجلاء أنه يريد نيل الشرف فقط، وليس مستعدا للعمل، لأنه إذا جلس بين غير الأحمديين قال لهم: ألم تروْا ما ضربَتْه جماعتنا في قاديان من مثال رائع؟ ألم تروا إلى التضحية العظيمة التي تقدّمها جماعتنا هنالك؟ والسامع يثني على ذلك، ولكنه لا يعلم عن نظام جماعتنا، ولو علِمه لردّ على هذا الأحمدي قائلا: "لا شك أن هؤلاء القوم يقدّمون تضحية رائعة، ولكن أخبرْني بما فعلتَه أنت؟" فالحق أن الأهمّ هنا مساهمتُه في هذه التضحية؟ فإذا لم يساهم فيها فهي ليست مفخرة له، بل هي ملامة عليه. لو أن هذا الأحمدي وأمثاله قالوا للآخرين صراحة نحن لا نريد الذهاب إلى قاديان لحمايتها، فماذا نفعل بتلك الأكوام من الطوب والحجارة هناك، فمهما كان جوابهم باطلا إلا أنهم يستطيعون أن يقولوا أمام الله تعالى أننا لم نفعل إلا ما رأيناه صحيحا بكل صدق وأمانة؛ إذ كنا نرى أن حياة المؤمن أثمن من أن تُزهق دفاعًا عن الآجُرّ والحجارة. ولكنهم ما داموا يثنون على تضحية إخوانهم أمام غير الأحمديين فهذا يعني أنهم يدركون أن هؤلاء يحسنون صنعًا، ولكن عندما يأتي

● *يشير حضرته ﷺ إلى أيام انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان في ١٩٤٧ حين اضطر أفواج من المسلمين للهجرة إلى باكستان، واضطر حضرته أيضًا للهجرة من قاديان تاركًا وراءه مجموعة من أبناء الجماعة للدفاع عن مركزها ضد هجمات الهندوس والسيخ. (المترجم)*

دورهم للتضحية يتخلّفون عنها قائلين: ما دام الآخرون يضحّون فلا داعي أن نضحّي نحن.

إذن، لم يُنزل الله تعالى قوله: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ إلا لتعليمنا، وكأنه تعالى أعلن: "إني مستعدّ لأفعل لكم أيضًا اليوم ما فعلت لقريش بأصحاب الفيل، ولكن يجب أن تقدّموا نموذجا للتضحية قدمتها قريش".

يقابلني كثير من الناس ويقولون متى يعطينا الله قاديان ثانية؟ ومتى يُري لنا آية كآية أصحاب الفيل؟ فأقول لهم: أتعلمون الذين ظهرتْ لهم آيةُ أصحاب الفيل؟ لقد ظهرت للذين قدّموا لقرنين وربع على التوالي تضحية لا نظير لها في تاريخ العالم. لقد أزهقوا أرواحهم ولكنهم لم يتركوا مكة. كان يعانون ويلات الجوع أيامًا وأيامًا حتى يُنهِكهم، فإذا أشرفوا على الموت حملوا خيامهم وضربوها خارج مكة. كان أولادهم وزوجاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأقاربهم وأصدقاؤهم يموتون جوعًا أمام أعينهم، ولكنهم ما كانوا يمدّون أيديهم إلى أحد للسؤال، وما كانوا يغادرون مكة أيضًا رغم هذه المحنة. لقد ماتوا واحدا تلو الآخر، وانمحوا، ولكنهم ما تركوا مكة. فإذا قدّمتم أنتم مثل تضحيتهم لرأيتم كيف يُري الله لكم آيةً كآية أصحاب الفيل. كانوا غير مؤمنين ولذلك ظهرت لهم تلك الآية بعد زمن طويل، ولكنكم مؤمنون ولسوف يعجّل الله لكم بهذه الآية، ولكن يجب أن تقدّموا التضحية أوّلاً، ثم يحق لكم أن تقولوا لله تعالى: ربنا لقد قدّمنا التضحية، فالآن أَرِنا الآية نصرةً لنا. ولكن ليس من الأمانة أن تتقاعسوا عن أداء واجبكم وتطالبوا الله تعالى بالوفاء بوعده. إن الله تعالى يفي بوعده حتمًا، فهو أصدق الصادقين، ولكنه لا يُري آيته لعبده إلا بعد أن يقدّم التضحية. فالسؤال هنا: أتتحلى جماعتنا بهذه الروح والحماس للتضحية؟ اعلموا أننا لن نحرز أي نجاح ما لم يتولد فينا هذا الإحساس، وما لم نرسّخه في أذهان إخواننا الآخرين أيضا. ماذا يمكن أن يفعله الخليفة وحده؟ إنه لا يستطيع أن يذهب إلى بيت كل واحد من نصف مليون أو مليون من أتباعه لنصحهم ووعظهم. إنما سبيله أن الذين يسمعونه يبلّغون كلامه

لغيرهم، وهم بدورهم يبلّغون الآخرين. ولكن هذا محال ما لم تضطرم في قلوبهم النار التي تضطرم في قلب الخليفة، وما لم تتولد في قلوبهم الرغبة العارمة لذلك كما هي في قلبه، وما لم يمسك كل أحمدي بيد أخيه قائلا له: يا أخي أنت مصاب بخطأ كذا فأصلحْه من فضلك. لقد اتّبع الرسول ﷺ أيضا الأسلوب نفسه عندما اقترب أجله حيث قال في خطبته يوم حجة الوداع في وصيته الأخيرة للمسلمين: "فَلْيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ" (البخاري، كتاب الحج).. أي لقد بلّغتُكم وصيتي ولكنها لا يمكن أن تصل إلى آذان الجميع، إنما تصلهم إذا نقل كل من يسمع كلامي للآخرين. هذا هو سرّ رقي الأمم، هذا ما تحيا به الأمم، هذا ما تنتصر به الشعوب في العالم، وإلا فإن الخليفة خليفة وليس بإله. فمثلاً إن ما أقوله الآن لا يسمعه إخواننا في كراتشي، ولا مئات جماعاتنا في السند، ولا يسمعه آلاف جماعاتنا المنتشرة في البنجاب، ولا عشرات جماعاتنا في إقليم "سَرْحَد"، كما لا يصل صوتي إلى أبناء مئات جماعاتنا في الهند والباكستان الشرقية. لا شك أن خطبي هذه تُطبع، ولكن ليس تأثير المكتوب كتأثير المسموع. وما دام الشخص الواحد لا يستطيع إيصال صوته للجميع، فما هو السبيل الذي يتم به إصلاح الناس؟ إنما سبيله أن يعتبر كل أحمدي نفسه مسؤولاً عن إصلاح الآخرين. عليه أن يعكف على إنجاز هذا العمل مستعدًّا لأكبر تضحية في سبيله. ولو فعلتم ذلك لنزل عليكم فضل الله تعالى من السماء، ولرأيتم النجاح ماثلاً أمام أعينكم. إن عددنا لا بأس به بفضل الله تعالى، ولو تحلّينا بالحماس الحقيقي للتضحية بالنفس لنشرنا الدعوة في العالم كله، بل رفعنا لواء الإسلام في العالم كله مرفرفًا.

والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أن الله تعالى بفضله ومنته قد ألقى في قلوبهم حبَّ رحلة الشتاء والصيف التي جلبت لهم رزقًا وفيرا، وأتاحت لهم فرصة الاتصال بالأمم المتمدنة، فليشكروا الله على هذه المنّة العظيمة، وليعبدوا رب هذه الكعبة. كأنما أشار الله تعالى هنا إلى أن معاملتنا الخاصة هذه ليست بسبب ميزة ذاتية فيكم، وإنما غرضها أن تخدموا الكعبة. ذلك أنه إذا ذكرتَ نتيجة عملٍ، لاعتُبرت هي السبب الحقيقي وراءه،

فمثلا إذا أعطى السيد خادمه أجرًا، ثم عصاه الخادم يومًا، قال له السيد: نحن ندفع لك الأجرة، فعليك أن تطيعنا، فهذا يعني أن الهدف من أجرته هو الطاعة لسيده، كذلك قد بيّن الله تعالى في قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ نتيجةَ إيلاف قريش، فكأنه تعالى قال: لقد قمنا بإيلاف قريش رحلةَ الشتاء والصيف ورتّبنا عليها أطيبَ النتائج، فعليهم الآن أن يعبدوا رب هذا البيت؛ فحرف الفاء هنا يدل على أن هذا الإنعام والإكرام والاحترام إنما غرضه أن يُنشئوا صلتهم برب هذا البيت.

هذا المعنى مبني على رأي كثير من النحاة الذين يرون أن المتعلق للام في ﴿لِإِيلافِ﴾ هو قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، فكأن الله قال لقريش: إننا نخصكم بهذه المعاملة المميزة لكي تعمروا هذا البيت وتذكرونا دائما، وهكذا قد نبّههم أن لا يظنوا أنه يعاملهم هكذا لميزة ذاتية فيهم، وذلك كما ظن اليهود أن الله تعالى يعاملهم بلطفه وكرمه دائمًا لأنهم أحباؤه، فقد ورد في القرآن الكريم أنهم قالوا لن يعاقبنا الله تعالى إلا أيامًا معدودة؛ فمنهم من ظن أنه لن يدخل من نسل إبراهيم في النار أحد، ومنهم من قال أنهم لن يعاقَبوا إلا ١١ شهرا، وسوف يخرجون من النار في الشهر الثاني عشر، ومنهم من زعم أنهم لن يعاقبوا إلا ٤٠ يوما، أو ١٢ يوما، بل سبعة أيام فقط (البحر المحيط)، ومنهم من ادعى أن أحدنا حين يؤخذ إلى الجحيم يقول لله تعالى: ألا تذكر مكانة جدنا إبراهيم عندك؟ فيرجعه الله تعالى ويدخله الجنة فورا. ولما كان واردًا أن تتسرب مثل هذه الأفكار إلى قلوب العرب أيضا، فيظنوا أن الله تعالى يخصهم بهذه المعاملة المميزة لأنهم من نسل إبراهيم؛ فلذلك دحض الله تعالى هذه الفكرة هنا.

الواقع أن كل أمة إذا فسدت أعمالها ونسيت واجباتها، أرادت أن تظفر بالنجاة بوصفة سحرية بدون فعل الصالحات، ولذلك قال الله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي يجب أن يتذكر أهل مكة أننا منّنا عليهم هذه المنّة بسبب الكعبة فقط، لا لميزة ذاتية فيهم. لم نخصهم بهذا الفضل لأنهم من نسل إبراهيم، وإنما هدفنا أن يجدوا رزقًا وافرا لكي يتفرغوا لذكر الله وعبادته حتى يكونوا جاهزين للإيمان بالنبي الموعود لهم. فاعتبار

قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ متعلقًا باللام في ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ يكون تأكيدًا لنفي التفوّق العرقي لقريش؛ فباطلٌ ظنُّهم أن ما يفعل الله بهم إنما يفعله من أجلهم ولميزة فيهم. كلا، إنما يفعله مِن أجل الكعبة ونبي الكعبة وإقامة لذكر الله وعبادته.

وهذا العيب الذي تم نفيه هنا قد تسرّب اليوم إلى المسلمين أيضا، فضلاً عن الأمم الأخرى. الواقع أن الله تعالى إذا أنعم على أحد عباده العظام، فمن سنته أنه ينعم به على ذريته أيضا، ولكنهم يظنون بمرور الأيام أنهم أحبّاء الله وشعبه المختار، ويعنون بذلك أن الله تعالى صار عاشقًا لهم، وكما أن العاشق يقول للناس لن أتخلى عن حبيبي مهما آذيتموني، كذلك يظن هؤلاء أن الله تعالى عاشقهم ولن يتخلى عنهم مهما بلغوا في الإساءة إليه بعصيانهم له وإعراضهم عن دينه. هذه العقيدة الخاطئة موجودة عند المسلمين أيضًا بشكل أو بآخر؛ كانت أختٌ للخليفة الأول ﷺ مِن مريدي بعض المتصوفين الزائفين، فجاءت مرة لزيارة الخليفة الأول، فقال لها: أختي، إنك تاركة للصلاة فبماذا ستجيبين الله تعالى يوم القيامة؟ قالت: إن الذي بايعتُه قد أخبرني أني مَعفيّة من كل أحكام الشرع بسبب بيعتي له. قال: أختي، اسألي هذا الرجل كيف يمكن أن يُعفى المرء من أحكام الله تعالى؟ إنه تعالى قد أمرنا بالصلاة وسوف يسألنا عنها يوم القيامة وقت الحساب، فكيف صرتُ معفية من الصلاة بسبب بيعتي لك؟ فوعَدَتْه أنها ستسأله عندما تعود إليه. وبعد فترة جاءت لزيارة حضرته ثانية، فقال لها: هل وجّهتِ ذلك السؤال إلى ذاك المتصوف؟ قالت: نعم، لقد سألتُه عن ذلك، فقال لي: يبدو أنك جئتني بعد زيارة أخيك نور الدين، فهو الذي علّمك هذا السؤال الشرير. فقلتُ: دعْكَ من هذا، وأجبْني على سؤالي. قال: إذا قال الله لك يوم القيامة لماذا لم تصلّي فقولي له: اسألْ صاحبي الذي بايعتُه، فقد قال لي عند البيعة الآن قد وقعتْ كل واجباتك الدينية عليّ، فلا حاجة بكِ لإداء الصلوات أيضا، وعندها سوف يخلّي ملائكةُ الله سبيلك. قلتُ له: سيدي، فماذا تفعل أنت وقد حملتَ ذنوب كل هؤلاء القوم الذين بايعوك؟ قال: عندما يحاسبني الله تعالى سأريه عيوني الحمراء بغضب قائلا: ألم يَكْفِك استشهاد

جدنا الإمام الحسين في كربلاء حتى بدأتَ تضايقنا؟ فيغضّ الله بصره، فأتسلل إلى الجنة فورا.

انظروا، كم تردّت حالة المسلمين! فما دام أنبياء الله ورسله الذين نتشرف بالإيمان بهم بحاجة إلى العمل ليل نهار، فما بال عامة الناس؟! الحق أن الله تعالى أيضا لا يزال يقوم بأفعاله كل حين. ألا نسمّيه رب العالمين؟ وما هو معنى رب العالمين؟ إنما معناه أنه لا يبرح يطعمنا ويربي أهلنا وأولادنا وأنعامنا وسمك البحر وطير الجو وغيرها من مخلوق. عندما نسميه خالق السماوات والأرض فهذا يعني أنه تعالى يقوم بالهندسة والبناء والزراعة، وحينما نقول إنه تعالى صنع هذه الأشياء بتركيبات كيماوية، فهذا يعني أنه صانع وعالم. فكل المهن التي نمارسها ننسبها إلى الله تعالى فعلاً. إننا لا نريد لله تعالى أن يصبح عاطلا ولا يعمل شيئا، مع أن البطالة لو كانت هي الأفضل لكان الله تعالى أَولى بها؛ أفلا يحق للذي خلق كل هذا الكون أن يستريح بعد هذا الإنجاز العظيم؟! وإذا كانت البطالة هي الأفضل فكان ينبغي أن يكون الله تعالى أكبر البطالين -والعياذ بالله- ولكنا نرى أن الله تعالى لا يفتأ يفعل أفعاله وكذلك رسلُه وخلفاؤه وعبادُه المؤمنون. ومع هذه الحقيقة الجلية يقول أتباع الأنبياء بعد مرور الزمن أن لا حاجة بهم الآن للعمل، لأن الآخرين قد حملوا عنهم مسؤولياتهم. الواقع أن هذا من علامات الانحطاط، وليس ترك المسلمين للعمل في هذا العصر إلا دليلاً على انحطاطهم الجماعي. إنهم يريدون أن يحمل غيرهم حملهم. يريدون أن يأتي المسيح ويملأ بيوتهم بالأموال من دون أن يعملوا شيئا؛ وكأنه ليس لله ولرسوله عملٌ إلا سلب أموال الناس كقطاع الطرق ووضْعها في أيدي المسلمين، واختطاف نساء الآخرين وتسليمها لشباب المسلمين، لكي يعيشوا عيشة بذخ وفسق وفجور.

ما أكبرَ الخطأَ العَملي الذي وقع فيه المسلمون بسبب عقائد خاطئة! وأَنَّى لأمّةٍ كهذه أن تزدهر في العالم؟ مع أن الواقع أن الحب الصادق يدفع إلى المزيد من العمل والتضحية. ألا ترون كم يزهق الوثنيون أنفسهم من أجل آلهتهم الباطلة! وكيف يتكبدون الشدائد ابتغاء مرضاتها! فالحق أن الحب الحقيقي يدفع المرء إلى العمل

أكثر وليس أن يجلس عاطلا. وهذا ما أكده الله تعالى في قوله ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.. أي إذا كان أهل مكة يرون أننا قد خوّلناهم هذه المنّة الخاصة.. فأطعمناهم من جوع وأمّنّاهم من كل فقر ومن كل خوف آخر.. فكان حريًا بهم أن يعبدوا رب هذا البيت، ولكنهم رغم اعترافهم بمِنَنِنا عليهم أصبحوا عاطلين، حتى تركوا عبادتنا. لقد آلَفْناهم رحلةَ الشتاء والصيف التي جلبت لهم المنافع وأزالت جوعهم وفاقتهم، فكان المفروض أن يفكّروا لماذا أنعم الله عليهم بهذه المنن؛ فلا بد أن يكون وراء هذه المعاملة المميزة هدف، وما هو إلا أن يعمروا هذا البيت. فما دمنا قد أدينا واجبنا فكان ينبغي لهم أن يؤدوا واجبهم فيقضوا أوقاتهم في عبادة الله.

الواقع أن رحلاتهم التجارية هذه كانت سببًا عظيما لترغيب الناس بالكعبة وحجّها. لقد قلتُ من قبل إن العرب لم يكونوا مهتمين بالحج في البداية، ولكن الله تعالى وجّههم إلى حج الكعبة من خلال رحلات قريش هذه. فعندما كانوا يذهبون في قوافلهم التجارية إلى ديار العرب ويخبرونهم أننا جئنا من مكة التي فيها الكعبة المشرفة التي يحجها الناس، وحجها عمل مبارك جدا، فكانوا يتوجهون إلى الحج الذي كانوا غافلين عنه. فكانت رحلاتهم بمثابة دعاية للحج، كما كانت تضمن لهم الرزق.

والمعنى الرابع الذي ذكره المفسرون لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ هو: اعجبْ يا محمد لإيلافهم.. أي انظر كيف أن أهل مكة قد أوجبوا عليهم رحلة الشتاء والصيف مع أن المفروض أن يعكفوا على عبادة الله في الكعبة. عليهم أن يتركوا هذه الأسفار ويشتغلوا بعبادة الله تعالى هناك.

لكني أرى خطأً في هذا المعنى، لأن التاريخ وصياغة الآيات كليهما يبين أن الله تعالى لم يشجب عملهم هذا، بل استحسنه؛ فكيف تُفسَّر الآية بأن عليهم أن يتركوا هذه الأسفار ويعبدوا الله عاكفين هناك؟ هذا المعنى لا ينطبق هنا مع أنه صحيح لفظًا ونحوًا. هذا أولاً.

وثانيا: إنهم كانوا يخرجون في هذه الرحلات لكسب الرزق ليوزّعوه على إخوانهم لكي يمكثوا في مكة ولا يهجروها إلى مناطق أخرى بحثًا عن الرزق، أما التسليم بهذا المعنى فيعني أن الله تعالى نهاهم عن الخروج في هذه الرحلات وإطعامِ إخوانهم من أهل مكة، ولكن هذا غير معقول عند الجميع؛ فتفسير الآية بهذا المفهوم محال. إنما اضطر القوم لهذه الرحلات لأنهم كانوا يموتون جوعا وفاقة، ولو أنهم خرجوا من مكة بلا سبب لصحّ الاعتراض على خروجهم، ولكن ما داموا يخرجون في هذه الرحلات لهدف سامٍ فكيف يقال أن الآية تعني: لماذا تقومون بهذه الأسفار، فكُفّوا عنها واعبدوا الله عاكفين هنالك. فثبت أن هذا المعنى لا يصح أبدا، اللهم إلا أن نعتبره خاصًا بالعصر النبوي، فيقال: لم يكن برحلاتهم بأس قبل بعثة محمد ﷺ، أما بعدها فعليهم أن يتركوا مشاغلهم هذه كلها ويصدّقوه ويقوموا بخدمة الدين أكثر من ذي قبل. وهذا المعنى صحيح يقينا، وبالفعل نجد أن رحلاتهم هذه انتهت ببعثة الرسول ﷺ تلقائيا، لأن الله تعالى جعل الناس يُقبلون على الحج إقبالاً عظيما يضمن الرزق لأهل مكة فلم تعد بهم حاجة للخروج منها بحثًا عن الرزق. لم يكن التجلي الرباني لأهل مكة كاملاً قبل بعثة الرسول ﷺ، لذلك فكانوا يضطرون لهذه الرحلات، أما بعد بعثة النبي ﷺ فقد تجلى الله تعالى لهم تجليا كاملا، فلم يبقَ بهم أي حاجة للخروج من مكة في رحلات تجارية.

إذن، لا اعتراض على أخذ هذا المعنى بهذا النطاق المحدود، حيث نقول إن الله تعالى لم يشجب رحلاتهم كلية، بل نبّههم إلى أنه لا حاجة بهم إليها بعد ظهور محمد ﷺ، وإنما عليهم أن يتركوها وينتفعوا بعهده ﷺ ويعكفوا على عبادة الله تعالى.

وهذا المعنى يمثّل لومًا شديدًا للكافرين وثناءً عظيما للمسلمين؛ وكأن الله تعالى يقول هنا: إن المؤمنين أيضا يقيمون في مكة، وحاجاتهم مثل حاجات الآخرين، ومع ذلك قد انهمكوا فورَ إيمانهم في تبليغ الحق وخدمة الدين متناسين كل أعمالهم ومشاغلهم، فلمَ لا يفعل غيرهم من أهل مكة مثلهم؟

وإن هذا المعنى أيضًا يمثّل درسًا لأبناء جماعتنا. عليهم أن يفكّروا أن الله تعالى لم يعط أهل مكة نعمًا أكثر مما أعطانا؛ كلا، بل لقد أعطانا أنوفًا وآذاناً مثلما أعطاهم إياها، ومنَحنا نفس الكفاءات التي منحهم إياها، ووهبنا نفس العلوم التي وهبهم إياها، وآتانا نفس القرآن الذي آتاهم إياه؛ ومع ذلك يأمرهم الله تعالى بالتفرغ من جميع أعمالهم ومشاغلهم والانصراف إلى نصرة محمد ﷺ وخدمة الدين كل حين. والواقع أن هذا الحكم لم يكن خاصا بأهل مكة، فإذا كنا لا نختلف عنهم حالاً، وكنا نملك نفس الصدق الذي كان عندهم، وما دامت جماعتنا تدّعي أن الله تعالى قد أحيا جميع الحقائق على يد المسيح الموعود عليه السلام، فلا بد لنا من إحياء هذه الحقيقة المذكورة في سورة إيلاف من جديد. لا يجوز لنا أن نقول إن هذه السورة تخاطب قريشًا فلماذا نعمل مثلهم؟ إننا نؤمن أن الله تعالى قد بعث محمدا رسول الله ﷺ في هذا العصر بعثة ظلّية مجازية، وأن بعثة المسيح الموعود عليه السلام هي في الحقيقة بعثة ثانية للنبي ﷺ، وأن المسيح الموعود عليه السلام هو الظل الكامل للنبي ﷺ، فلا بد لنا من التسليم أيضًا أن المكان الذي يتجلى منه اسم الله في هذا العصر هو ظل لبيت الله، وأن الجماعة المؤمنة بالمسيح الموعود هي أظلال للصحابة، وبالتالي فإن الواجبات التي فرضها الله تعالى على المقيمين حول بيته هي نفسها واجبات جماعتنا أيضا. فهذا ما نراه في الدنيا أيضا، فإن الأب إذا مات قام مقامه أكبر أولاده، فلا يقول أحد من إخوته كيف قام أخونا الأكبر مقام أبينا، ذلك لأن العقل يحكم أنه إذا فُقد الأصل فلا بد أن يأخذ مكانه ظلُّه. ثم إن العقل يفتي أيضا أن مسؤوليات الأصل تصبح مسؤوليات الظلّ. فما دامت جماعتنا هي ظلّ جماعة محمد ﷺ ونائبة عنها، وما دمنا قد دخلنا في جماعة محمد ﷺ بإيماننا بظله ونائبه، فلا مناص لنا من القول إن هذه الآيات تخاطبنا أيضًا كما تخاطب صحابة الرسول ﷺ، ولا بد لنا من أن نعمل ما عمله الصحابة. لقد أمر الله تعالى هنا أهل العصر النبوي قائلاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي عليكم أن تمضوا أوقاتكم في عبادة الله وتعتادوا ذِكره؛ وهذا هو عملنا نحن الأحمديين أيضا، ولكن المؤسف أن الأحمديين لم يتبوأوا هذا المستوى بعدُ. فكم منهم بلغوا هذا المستوى يا ترى؟ لا شك أن منا مَن

يتبرعون أكثر مما يتبرعه غيرُنا، ولكن الدين لا ينتشر بالتبرعات وحدها، بل يقول الله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي أن الدين يزدهر بتطهير النفس وكثرة العبادات؛ ولكني أرى أننا لا نهتمّ بذكر الله وعبادته إلا قليلاً. لا شك أن الأحمديين أكثر التزامًا بأداء الصلوات المفروضة من غيرهم، ولكنهم قليلو الاهتمام بالجلوس في المساجد لذكر الله، وبأداء التهجد في جوف الليل، وبالاعتكاف، مع أن كل هذه الأمور وثيقةُ الصلة بإصلاح النفس، وقد حث عليها القرآن الكريم. لقد كان من الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام لأولاده: ربَّنا أَخْرِجْ من أولادي دائمًا قومًا يعتكفون لك ويمضون أوقاتهم في عبادتك.. لكني أرى أن الأحمديين لا يهتمون بهذا الأمر إلا قليلا، مع أن النفس لا تُصقَل إلا بالتركيز على هذه الأمور. إن جلاء النفس يتيسر بذكر الله دائما. أما الصلاة فأرى أنهم لا يهتمون بأدائها بهدوء ومهل. لقد رأيت الناس يتعجلون في أداء السنن ليخرجوا من المسجد في عجلة. لقد نبّهت إلى هذا الأمر باستمرار أيامَ إقامتي في لاهور أثناء مرض زوجتي أم طاهر، فرأيت بعد أسبوعين أو ثلاثة أن الإخوة قد اعتادوا أداء الصلوات بهدوء. عندما يصلي الناس الفريضة وراء الإمام يكونون مضطرين لأداء الصلاة بهدوء، ولو كان بإمكانهم لتركوا الإمام وهو راكع وسلّموا وخرجوا. لقد رأيت أنه عندما ينهي الإمام صلاة الفريضة، يؤدي الناس السنن مستعجلين كأنهم في سباق. هذا لا يليق بنا أبدًا، لأنه منافٍ لتعليم الإسلام. من واجب الإخوة أن يصلّوا بهدوء، ويقضوا معظم أوقاتهم في ذكر الله والدعاء، وأن ينصحوا المسلمين الآخرين أيضا بالاهتمام بذكر الله وعبادته، لأن الإسلام لن يزدهر ازدهارا حقيقيا إلا بالتركيز على ذكر الله وعبادته سبحانه وتعالى.

ورد في التاريخ أن السفير الرومي لما رجع بعد رؤيته المسلمين قال لمِلكه: أيها الملك، لن تنتصر على المسلمين. قال لِمَ؟ قال: إنهم يحاربون عدوهم طول النهار، ويعبدون الله تعالى طول الليل. إنهم ليسوا أناسًا، بل هم جنّ.

الحق أن الاهتمام بعبادة الله تعالى يزوّد الإنسان بنورٍ يمكّنه من ضبط نفسه، وبالتالي يمكّنه من التغلب على قُوى الدنيا الأخرى. يظن الناس بتأثير الحضارة

الغربية في هذا العصر أن الجلوس على السجادة لذكرِ الله وتسبيحه وتحميده مضيعة للوقت، مع أن الذاكرين الله تعالى جالسين على السجادات هم الذين قلبوا نصف العالم في ١٢ سنة فقط، مما يدلّ دلالةً بيّنة أن هذا ليس مضيعة للوقت، بل بسببه يوضع في الإنسان بركةٌ تمكِّنه من إنجاز أعمال عظيمة في وقت قصير جدا. إن الجلوس على السجادة لذكر الله تعالى ليس بطالة، بل يزوّد الإنسان بمهارة في أعماله ويخلق في قلبه نورًا يساعده على القيام بمنجزات عظيمة في وقت قصير جدًا. إذا قضى المرء ثلاث ساعات في ذكر الله تعالى فلا شك أنها نقصتْ من وقته، ولكنه ببركة تلك الساعات سينجز في ثماني ساعات ما لا ينجزه الآخرون في أربع وعشرين ساعة. فعليكم بالإكثار من العبادة والتهجد وذكر الله ووقفِ حياتكم لخدمة الدين. لقد أخبرتكم أن عدد الإخوة الذين نذروا حياتهم لخدمة الدين قليل جدًا، ثم لا يزال بين هؤلاء الواقفين مَن لا يعرفون واجباتهم. خُذوا مثلاً فرع جماعتنا في مدينة "كُويته"، فإنها أفضل من فروع جماعاتنا الكثيرة، وقد ضربوا مثالا رائعا في كثير من المجالات بفضل الله تعالى، ولكنهم لا يزالون متأخرين جدًا فيما يتعلق بوقف الحياة لخدمة الدين.

وتقع أكبر مسؤولية على أفراد أسرة المسيح الموعود عليه السلام بهذا الصدد. إنني لا أعترض على الآخرين فقط، بل أضم إليهم أفراد عائلته عليه السلام أيضا. أرى أن فريقًا منهم قد نسوا واجب نذر الحياة لخدمة الدين واشتغلوا بأعمال الدنيا وتجاراتها، وهذا تقصير كبير جدًّا منهم، وأرى أيضا أن أفراد جماعتنا هم السبب وراء ذلك، حيث يدلّلونهم بألقاب مثل صاحبزاده (أي ابن السيد)، مع أن مَن نسي السيد فكيف يُدعى ابنًا له؟ إنهم يفتحون المحلات ويمارسون التجارات ويسعون لجمع أموال الدنيا، وإذا قيل لهم لماذا لا تنذرون حياتكم لخدمة الدين، قالوا: مِن أين نأكل إذنْ؟ وكأنهم يقولون: يمكن لغيرنا أن يعيش بثلاثين روبية، ولكنا لا نستطيع العيش بهذا المبلغ الزهيد. مع أن الله تعالى قد سمى المسيح الموعود عليه السلام بإبراهيم أيضا، وتريد المشيئة الإلهية من ذلك أن يتأسى أولاد المسيح الموعود عليه السلام بأسوة إسماعيل، فينذروا حياتهم لخدمة الدين، ويرضوا بما قسم الله لهم من الرزق قليلا

كان أو كثيرا. لقد كان في أمة موسى عليه السلام أنبياء اضطروا للجوع والفاقة، كما كان بينها أنبياءٌ ملوكٌ مثل سليمان الذي بلغ عدد جنوده وخَدَمه الآلافَ.

وإني أرى أيضا أن السِّفْلة من الجماعة يحتقرون من يقوم بخدمة الدين ويثنون على الذين يتهافتون على الدنيا، وأرى أن فئة منهم جاهلون والأخرى منافقون، حيث يحاولون تدمير الجماعة بتصرفهم الخاطئ هذا. لكني أعلم أن فعل الله تعالى سوف يطهّر جماعته من هؤلاء السِّفْلة جميعا، لأن دور المؤمنين أيضا قادم.

باختصار، إنني أحذّر الجماعة بأنها ترتكب تقصيرا خطيرا في هذا المجال، إذ لا ينذر أبناؤها حياتهم لخدمة الدين بالقدر المطلوب. ثم إن الذين ينذرون حياتهم لا يؤدون واجبهم كما ينبغي، مع أننا لا نستطيع من دون الاهتمام بهذا الأمر أن نفي بما عاهدنا الله عليه عند البيعة. وإذا لم نفِ بعهدنا فلا نستحق أن يفي الله بعهده معنا.

أعود الآن إلى الموضوع الأساس ثانيةً وأقول: إن قول الله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ هو نتيجة لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.. أعني أن الله تعالى قد أعلن هنا أننا لم نمنّ على أهل مكة بهذه المنّة إلا ليعبدوني، إذ لم تكنْ فيهم أية ميزة ذاتية حتى نخصّهم بهذه المعاملة المميزة دون الآخرين، فهل كان أهل أوروبا أو الهند أو إفريقيا وغيرها أعداء لنا و لم يكونوا من مخلوقاتنا؟ إنما هيَّأنا هذه الأسباب الخاصة لازدهار أهل مكة لكي يقيموا عند بيتنا فلا يهجروه إلى مكان آخر مضطرين من ويلات الجوع والفاقة. لقد أمددناهم بالرزق ولكنهم نسونا، مع أن واجبهم أن يعبدوا رب هذا البيت شاكرين منتنا هذه.

هناك سؤال هام وهو: لماذا قال الله هنا ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ و لم يقل (فليعبدوا هذا البيتَ)؟

والجواب أن القرآن الكريم ينفي أن يكون هذا الشيء الجماد (أي الكعبة) يملك أي قدرة، بل القدرة كلها لله تعالى، فأضاف الله تعالى هنا لفظ "رَبّ" ليعلّمهم التوحيدَ الكامل، فكأن مفهوم الآية كالآتي: يظن أهل مكة أنهم قد نالوا هذا العز

والشرف بسبب هذا البيت، وهذا ظن باطل، إنما نالوه بسبب رب هذا البيت. وكأنما قال لهم: لا تظنوا أن الكعبة قد عملتْ لكم كل هذا، كلا، إنها لا تقدر على فعل شيء، إنما هي بيت من تراب، ولا يقدر أن ينفع أحدًا شيئا، وإن رب هذا البيت هو صاحب القدرة كلها.

ورد في الحديث أن سيدنا عمر ﷺ كان يطوف بالبيت مرة، فمر بالحجر الأسود، فضربه بعصاه، ثم قبّله وقال: إنما أنت حجرٌ لا تقدر على شيء، ولكني أقبّلك لأن الله تعالى أمرني بذلك. إن عاطفة التوحيد هذه هي التي رفعت سيدنا عمر ﷺ في الدنيا. كان عاشقا كاملا لوحدانية الله تعالى، فلم يطق أن يشرك في قدرة الله شيئا. لا شك أنه كان يعظّم الحجر الأسود، ولكن ذلك فقط لأن الله تعالى أمره بتعظيمه، وليس لأن فيه ميزة ذاتية. كان ﷺ يرى أن الله تعالى لو أمرني بتقبيل أحقر شيء في الدنيا فسأقبّله، لأننا عباد الله تعالى لا عبادُ حجرٍ أو مكان معيّن. فكان يعظّم الحجر الأسود من دون أن يقصّر في وحدانية الله تعالى. وهذا هو مقام المؤمن الصادق. إن المؤمن الصادق يرى أن بيت الله ما هو إلا مثل آلاف البيوت المبنية من طوب وحجر، وأن الحجر الأسود ليس إلا مثل ملايين الأحجار الموجودة في العالم، ولكنه في الوقت نفسه يعظّم بيت الله ويقبّل الحجر الأسود، لأنه يعلم أن الله تعالى قد أمره بتعظيمهما، ولكنه مع تعظيمه لهذا البيت وتقبيله للحجر الأسود يوقن بكل قوة أنه عبد لِله الأحد وليس للحجر. هذه هي الحقيقة التي كشفها عمر ﷺ حين ضرب الحجر الأسود وقال: إنك لا تساوي شيئا عندي، وليس فيك ميزة أو قدرة ذاتية تُقبَّلُ بسببها، إنما أنت كأيّ حجر من ملايين الأحجار التي نراها في العالم، ولكن الله تعالى قد أمرني بتعظيمك، فلذلك أعظّمك، ثم تَقدّمَ وقبّل الحجرَ الأسود.

فلو قبّلنا الحجر الأسود مدركين بأن الله تعالى قد أمرنا بتقبيله مع أنه ليس أكثر من حجر، لَكُنّا متمسكين بالتوحيد، ولو أهملنا هذا الأمر وظننّا أن فيه ميزةً خاصة لأصبح تقبيلنا له عملاً وثنيا. لقد قبّل عمر ﷺ الحجر الأسود، لكنه لم يكن مشركا، إذ كان يدرك أن ليس له أية أهمية ذاتيه، وإنما قبَّله بأمر الله تعالى، ولكن لو

قبّل أحد الحجر الأسود ظنًّا منه أن فيه ميزة خاصة لصار مشركا. وإذا طاف المرء بالكعبة لأن الله تعالى أمر بذلك فهو موحّد عظيم، ولكن لو طاف بها ظنًّا منه أن في هذا البيت ميزة ذاتية وقدرة خاصة فهو مشرك.

هذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى هنا، حيث قال لقريش:" تظنون أنكم تتمتعون بهذا الشرف والعزّ بسبب هذا البيت! أيها الحمقى، إن هذا كله ليس بسبب البيت، بل هو بسبب رب هذا البيت". إنما جعل الله هذا البيت مجرد علامة، مثلما كان الملوك في القديم يضعون علامة على كبش أو جمل أو فرس أو غيره ويطلقونه حرًّا، فما كان يجرؤ على إيذائه أحد، ومن آذاه فكأنما أساء إلى الملك فكان يشن عليه الحرب، ليس لأنه قتَل جمله أو فرسه أو كبشه، بل لأنه أهانه بقتله. كذلك قد جعل الله تعالى الكعبة مركزًا لأمة محمد ﷺ وسببًا لجمع ذرية إبراهيم عليه السلام، فهي مجرد علامة جعلها الله تعالى في الدنيا، فلو ظن أحد أن لهذا البيت ميزة خاصة فهو مشرك، وإذا أساء أحد إلى هذا البيت ظنًّا منه أنه ليس علامة جعلها الله تعالى في الدنيا، فهو أيضا عدو لله تعالى، فأحدهما يعامَل معاملةَ المشركين، والثاني يعامَل معاملة أصحاب الفيل، ومن قال إن ما حصل إنما فعَله ربُّ البيت وليس البيتُ نفسه، فهو الذي يُعَدّ موقفه صحيحًا. وإليه أشار الله تعالى في قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي أن أهل مكة لا يَلقَون هذه المعاملة المميزة إلا بسبب رب هذا البيت. إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمَن أهلك أصحاب الفيل؟ وإذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي حمى مكة قرونا؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي هيأ الرزق لأهل مكة؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي جعل البركة في رحلاتهم هذه؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي عرّف أهل مكة على هذه البلاد تذكيرًا لهم ببعثة النبي القادم الذي من أجله جُعل هذا البيت؟ وما دام الله تعالى هو الذي قد خصّهم بهذه المعاملة المميزة، فمن العار أن يتركوه ويعبدوا دونه اللات ومناة والعزّى ظنًّا منهم أن لهم أن يعملوا كما شاءوا فإنهم سدنة الكعبة. عليهم أن يتذكروا أن عزّ هذا البيت ليس إلا بسبب رب هذا البيت، وهو الذي قد منحهم هذا العز والرقيّ، فمن واجبهم أن يُقلِعوا

عن الشرك ويعبدوا الله وحده. فهذه الآيات قد جاءت تحثّهم على عبادته وتوحيده.

قد يقول قائل هنا: إن الآلهة الباطلة ومعابدها وعَبَدَتَها أيضا ينالون العز في الدنيا، أليس هذا دليلا على أن تلك الآلهة والأصنام هي التي منحت العزّ لمن يعبدها؟ بمعنى أنكم تقولون إن عز الكعبة إنما هو بسبب رب هذا البيت، ونجد في الدنيا معابد تعظّمها الناس، فلم لا يُنسب هذا العز إلى الأصنام التي تُعبد فيها، فيقال أن هذه الأصنام هي التي كتبت هذا العز لهذه المعابد؟

فالجواب أنه يوجد في الدنيا أشياء حقيقية وزائفة أيضًا، فيوجد هناك الذهب الخالص والزائف أيضًا، واللآلئ الخالصة والزائفة أيضا، والأحجار الكريمة والزائفة أيضًا، فهل يترك الناس الأشياء الخالصة بسبب الأشياء الزائفة، أم يفرقون الزائف من الأصلي بعلامات مميزة. إننا لا نرمي اللآلئ الأصلية بسبب الزائفة ولا الأحجار الكريمة بسبب الزائفة ولا الذهب الخالص بسبب الزائف، بل نعرف الزائف من الخالص بعلامات مميزة. وبالمثل لا بد لنا أن نرى فيما إذا كان العز الذي تتمتع به الكعبة هو من الله تعالى أم لا، فإذا كان من عنده تعالى فما هي العلامة التي تميز الكعبة عن غيرها من المعابد؟

ويمكن استيعاب هذا الأمر بمثال آخر، وهو أن الوالديْن يربّيان الولدَ، ويخدمانه نتيجة حبهم الفطري له، وقد يختطف اللصوص الولد أحيانا ويربّونه لتسخيره فيما بعد في تحقيق أهدافهم الخبيثة، حيث يريدون أن تفسد أخلاقه فيصبح من اللصوص وقُطّاع الطرق مثلا. وأي شك في أنهم مضطرون لتربيته بحب ولطف كحب الوالدين، وإلا هرب من عندهم. إنهم يحبونه، ولكنه حب زائف بلا شك، وإن تربيتهم بحبٍّ ليس دليلا على أن والديه أيضا لا يحبانه؟

فكما أن هناك بونا شاسعًا بين الأشياء الأصلية والزائفة، كذلك هناك فرق كبير بين العِزّ التي تتمتع به الآلهة الباطلة ومعابدها وعَبَدَتُها وبين العز الذي تتمتع به الكعبة؛ وذلك أن الكعبة لم تنل هذا العز والتعظيم صدفة، بل قد أُسّست بناءً على وحي الله حيث قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(آل عمران:

٩٧).. أي أن هذا هو أوّل بيت بُني لفائدة البشرية كلها. والبديهي أن الأديان السابقة التي كانت خاصة بشعوبها ما كانت لتبني بيتًا لفائدة البشرية كلها، وإنما يمكن أن يؤسس مثل هذا البيت من عند الله تعالى وبناءً على وحيه. ثم تمّ تجديد هذا البيت في عهد إبراهيم عليه السلام بناءً على وحي الله تعالى، حيث ورد في القرآن أن إبراهيم قال بأني أبني هذا البيت، يا رب، لكي يأتي إليه الناس ويطوفوا حوله ويعبدوا الله ويذكروه ويخدموا زائريه. ثم إن إبراهيم عليه السلام دعا أيضا: رب اجعل هذا البيت آمنًا وارزقْ أهله من عندك، وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم. لقد قام بهذا الدعاء عند تأسيس الكعبة حين لم يكن هناك أية آثار لعمرانها ورقيّها، وإنما كان واديًا غيرَ ذي زرع ليس فيه جرعة ماء ولا حبة قمح؛ فالازدهار الذي حقّقتْه الكعبة راجع حتمًا إلى هذا الدعاء وهذه النبوءة، ولا مناص من القول إن هذا كله قد تمّ من عند الله تعالى فقط. هناك مئات الآلاف من المعابد في العالم، ولكن هل نال أيٌّ منها الازدهار بناءً على نبوءة كهذه؟ أم هل بوسعِ أهلِ أيٍّ من هذه المعابد أن ينشروا اليوم نبأً مماثلاً عن ازدهاره؟ فلينشروه إن كانوا يملكون الجرأة ثم لينظروا عاقبتهم. أن ينال معبدٌ ما العزَّ والتعظيم شيء، أما أن ينال العز بناءً على نبوءة فشيءٌ مختلف تماما؛ فمثلاً لو قال أحدٌ في مجلس أن زيدًا سيأتي بعد قليل، ثم حضر زيد فعلاً لأمكن القول إن نبوءته قد تحققت، ولكنه لو ظل صامتا وعندما أتى زيد قال انظروا قد تحقق ما قلت، فلا شك أن الجميع سيضحكون عليه، ويقولون: متى تنبأتَ بمجيئه حتى تدّعي الآن أن قولك قد تحقق؟ كان إبراهيم عليه السلام قد أدلى عند تأسيس الكعبة بنبوءة أنها ستزدهر وسيحجّها الناس ويطوفون بها ويقيمون حولها، وأنها ستظل محفوظة دائمًا فلن يقدر على تدميرها أحد، وأن أهلها سيُرزقون من عند الله تعالى رزقا خاصا؛ وما دامت كل هذه النبوءات قد تحققت واحدة تلو الأخرى رغم الأوضاع غير الملائمة، فتحقُّقها في حد ذاته دليل على أن هذا لم يكن صدفة، بل كان من عند الله فقط. أما لو نالت بعض المعابد الأخرى عزًّا، فسوف يُعتبر هذا صدفة، إذ لم تكن هنا نبوءة بشأنها.

ثم انظروا إلى موقع الكعبة الجغرافي، فقد بنى إبراهيم عليه السلام هذا البيت في مكان لم يوجد فيه أثر للعمران بل لم يوجد عمرانٌ لأميال وأميال حوله، وكان يفتقر إلى الماء والزرع، وكأنه اختار لبنائه موقعا يفتقر إلى أسباب الرقيّ كلها، ليكون عمرانه دليلا على قدرة الله المعجزة. إن العمران بحاجة إلى ماء وزرع وقرى قريبة، ولكن موقع هذا البيت كان يفتقر إلى كل هذه الأسباب، ومع ذلك تنبأ إبراهيم عليه السلام بناءً على وحي الله تعالى أن الناسَ سيأتون إلى هذا البيت ويحجّونه، ثم جاء الناس وقاموا بحج البيت، وصار هذا المكان الخراب اليباب بلدًا آمنًا عامرًا عظيما؛ فثبت أن ما حصل إنما حصل من عند رب هذا البيت. أما لو ذاع صيت بعض المعابد صدفة فلن يُعزى إلى صنم يُعبَد فيه، فمتى سبقت نبوءةٌ عن تعظيمه، ومتى ادعى أحد أنه سينال الشهرة والعزّ بين الناس؟ ومتى أعلن شعب أو دين بأن تحقُّق هذه الدعوى سيكون دليلا على صدقه وعظمته؟ فثبت أن تعظيم ذلك المعبد لم يكن إلا صدفة. خذوا مثلاً "لندن" التي أصبحت اليوم مدينة كبيرة، ولكن متى سبقتْ نبوءة عن ازدهارها؟ ونيويورك أيضا صارت مدينة عظيمة، ولكن لم تسبق أي نبوءة عن ازدهارها، فمع أنهما مدينتان كبيرتان إلا أن ازدهارهما لا يمكن أن يُعزى إلى الله تعالى. ولكن لو عُمرت في الدنيا مدينة لا تساوي ٢% من مساحة لندن بناءً على نبوءة ربانية فلا بد أن نعتبرها آية من الله تعالى.

لقد ثبت من هنا أن هناك بونًا شاسعًا بين التعظيم الذي تحوزه الكعبة والتعظيم الذي يحظى به أي معبد آخر. إن تعظيم الكعبة كان نتيجة نبوءات من الله تعالى، أما تعظيم بعض المعابد الأخرى فليس إلا صدفة. فكما أن هناك ذهبًا زائفا مقابل الذهب الخالص، كذلك ليس تعظيم أو ازدهار معبد من المعابد مقابل تعظيم الكعبة إلا تلميعًا وتزييفًا.

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾

التفسير: هذه الآية قد أكّدتْ تماما المعنى الذي لا أزال أركز عليه منذ البداية. لقد قلت إن الموضوع الأساس في الآيات السابقة هو التركيز على ألوهية الله وقدرته ومنّته وفضله، حيث تبين هذه الآيات أن الله تعالى هو الذي ألقى في قلوب قريش حُبَّ رحلة الشتاء والصيف، وهو الذي سهَّل عليهم هذه الأسفار التجارية وكتب لهم العزَّ والصيت، وقد أشار الله تعالى هنا أيضًا إلى الموضوع نفسه مبينًا أننا قد أنعمنا على قريش بهذه المنن، فمن واجبهم أن يعبدوا الله تعالى الذي أطعمهم من جوع وآمَنَهم من خوف.

من قواعد العربية أنهم يشيرون حينًا إلى المذكور القريب ثم إلى البعيد، وحينًا آخر يعملون العكس، وكلا القاعدتين قائمة وتُستخدم الضمائر بحسبهما، وقد أُشير في قوله تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إلى المذكور القريب أولاً ثم إلى البعيد، فالمذكور القريب هنا هو قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.. أي أن أهل مكة كانوا يموتون جوعًا، فأشار الله تعالى إليه أولاً بقوله ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾، أما قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فهو إشارة إلى المذكور البعيد وهو آخرُ آية من سورة الفيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. أي أنه تعالى أهلكَ أبرهة وجنوده وجعلهم كسنابل قمح فارغة. ولولا استئصال شأفتهم في اليمن لظلت مكة مهددة من قبل اليمن دائما، وأصبحت رحلة قريش إلى اليمن مستحيلة، كما استحالت رحلتهم إلى الشام أيضا بسبب توتر علاقاتهم مع اليمن الذي كان ولايةً تابعة للروم الحاكمين على الشام،

فأرى الله تعالى هذه الآية المروعة ودمّر الحكومة المسيحية في اليمن، فاستولى الرعب على الشام أيضا، وبالتالي ظلت رحلات المكيين إلى البلدين مستمرة.

لقد تبين من هنا أن المفاهيم المختلفة التي بيّنتُها لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ كلها مفاهيم صحيحة.. أعني أن سورة قريش تحتوي على موضوع مستقل، كما أنها تشير إلى موضوع سورة الفيل أيضا، فقوله تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ إشارةٌ إلى الموضوع المستقل المذكور في سورة قريش، وقوله ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارةٌ إلى الموضوع المستقل المذكور في سورة الفيل أيضا. وعليه فيمكننا القول إن الله تعالى أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش، كما يصح القول أن الله تعالى رغّب قريشا في رحلة الشتاء والصيف ليسهل عليهم كسب الرزق ولكي يقيموا في مكة مطمئنين.

على أية حال، قد أشار الله تعالى هنا إلى المِنَّتَينِ كلتيهما، فقال لقريش: عليكم أن تعبدوا الله الذي أطعمكم من جوع؛ إذ ذهب بقوافلكم التجارية إلى الشام واليمن ليضمن لكم لقمة العيش، كذلك عليكم أن تعبدوا الله الذي بدَّل خوفكم أمنا.. أي دمّر أصحاب الفيل حين جاءوا مهاجمين وضَمِن لكم الأمن.

هناك سؤال: لماذا جاء التنوين على "جوع"؟ أعني لماذا قال الله تعالى ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ ولم يقل "مِن الجوع"؟

يمكن أن يكون لذلك سببان وكلاهما ينطبق هنا، أوّلهما: أن التنوين يفيد التعظيم، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ يعني يا أهل مكة قد أنقذناكم من جوعٍ هائل قاتل ما كان لكم أن تنجو منه. بالفعل كان القوم يعيشون في واد غير ذي زرع، فأنَّى لهم أن ينجوا من الموت جوعًا في ذلك القفر؟ لا شك أن الطائف كانت ذات بساتين وزراعة إلى حد ما، ولكنها لم تكنْ لتكفيهم. كانت بعض الأسر الغنية هي التي تأتيهم بالغلال من الطائف، أما باقي

أهل مكة فكانت الغلال تأتيهم من اليمن ومن المدينة وضواحيها عادة، بل كانت تُجلب من الشام والحبشة أحيانًا. فبقوله تعالى ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ قد أشار إلى أنكم -يا أهل مكة- كنتم تعيشون في مكان لم يتيسر فيه الطعام العادي البسيط، فهيّأنا الأسباب لتزويدكم بالطعام الوفير، فنجوتم من ويلات الجوع. هذا هو السبب في أن الله تعالى لم يقل هنا "مِن الجوع"، بل قال ﴿مِنْ جُوعٍ﴾.. أي لم يكن ذلك جوعا عاديا، بل كان جوعا شديدا ما كان لكم أن تنجوا من ويلاته.

كذلك لم يقل الله تعالى هنا "وآمَنَهم مِن الخوف"، بل قال ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، ليشير إلى أننا لم ننجكم من الخوف فقط، بل أنقذناكم من خوف شديد هزَّ كيانكم. وقد بينتُ عند ذكر حادث الفيل مفصلا كيف أن عبد المطلب قد قال لأبرهة صراحةً إننا لا نقدر على محاربتك، وإذا كان هذا بيت الله فهو سيحميه. ثم إن قبائل هذيل وبني كنانة أيضا قالوا لأهل مكة بعد التشاور إنهم لا يستطيعون أن يساعدوهم، وأشاروا عليهم أن الأفضل لهم أن لا يحاربوا أبرهة وجنوده، بل يدَعوه يفعل ما يشاء (روح المعاني). كم كان هذا الخوف شديدا! حيث أجمع القوم كلهم على الاستسلام وإلقاء السلاح! ومن أجل ذلك قال الله هنا ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ ولم يقل: "من الخوف".. أي أننا آمَنَّاكم من خوف شديد جدًّا.

والتنوين يفيد التحقير أيضا كما يفيد التعظيم، وعليه فكلمة ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ تعني: مِن جوعٍ أدنى، وكلمة ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ تعني: مِن أدنى خوفٍ.. بمعنى أننا قد رزقنا أهل مكة رزقًا وافرًا حتى نجوا من جوع بسيط أيضًا. كم كان فضل الله عليهم عظيمًا إذ أسكنَهم في مكان قفر حيث لا سبيل للطعام، ومع ذلك هيَّأ لكل فرد منهم طعامًا وفيرا رغيدا حتى حفظهم من أدنى جوع أيضًا!

كذلك سيعني قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن الله تعالى نجاهم حتى من أدنى خوف، بمعنى أنه تعالى لم يدَعْ أبرهة وجنوده يدخلون في حدود الحرم، بل

أبادهم خارجه. لو أنهم دخلوا مكة ورموها بالمنجنيق مثلاً لأصاب أهلها شيء من الخوف، مثلما حصل بعد الرسول ﷺ عند هجوم الحجاج بن يوسف على مكة؛ حيث أصاب حجر المنجنيق الكعبةَ فاحترق جزء منها كما ورد في بعض الروايات.

وقد اعترض البعض قائلا هنا: لو كانت القصة المذكورة في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ صحيحة فلماذا أصيبت الكعبة بحجرٍ واحترق جزء منها عند هجوم الحجاج؟ فأجاب عليه البعض وقال: إنه لم يُرِدْ ضرب الكعبة، وإنما أصابها الحجر صدفة، وثانيا: الحريق الذي شب في الكعبة قد أُطفئ فورًا فلم يصبها بضرر.

على أية حال، كان هلاك أصحاب الفيل إرهاصًا لبعثة النبي ﷺ، و لم تكن حماية الكعبة في حد ذاتها مقصودا، بل كانت حماية النبي ﷺ هي المقصود أساسًا، ولذلك لم تظهر آيةُ حماية الكعبة بعد بعثة الرسول ﷺ بالقوة التي ظهرت بها قبل بعثته.

باختصار، لقد حفظ الله تعالى أهل مكة حتى من أدنى خوف وأردى أبرهة في مكانه.

وروي أن عليًّا ﷺ قال إن المراد من قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن الخلافة ستبقى في قريش دائما (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

هذا منتهى السخف، ولا أصدّق أن عليًّا ﷺ قال ذلك. وهذا ما أكده بعض المفسرين أيضًا فقالوا أن هذه الرواية قد نُسبت إلى عليّ ﷺ باطلاً مخافة ألا تذهب الخلافة من قريش (التفسير الكبير للإمام الرازي).

فعلّق عليه أحد المؤرخين قائلا: لكنها ذهبت من قريش فعلاً.

الحق أن البعض يختلقون الروايات من عند أنفسهم ثم ينسبونها إلى غيرهم كما هو حال هذه الرواية على ما يبدو.

وقال البعض إن قوله تعالى ﴿آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارةٌ إلى القحط الذي أصاب أهل مكة في زمن الرسول ﷺ (جامع البيان للطبري)، إذ ورد في الحديث أنه لما آذتْ قريشٌ رسول الله ﷺ إيذاء شديدا دعا عليهم: اللهم خُذْهم بسنين كسِني يوسف (البخاري، كتاب التفسير).. أي خُذْهم بقحطٍ كما أخذتَ الناسَ بقحط في زمن يوسف عليه السلام؛ فأصاب أهل مكة قحط شديد حتى توسلوا إلى الرسول ﷺ مع عدائهم الشديد له، فدعا لهم، فنزلت الأمطار فيما حولهم، كما أن حكومة الحبشة بعثت لهم بالغلال، فزال القحط.

ولكن هذا المعنى باطل عندي، لأن الثابت أن هذه السورة من أوائل السور نزولاً، أما القحط فأصابهم حين حاصروا النبي ﷺ في شعب أبي طالب، فثبت أن نزول هذه الآيات قد سبق هذا القحطَ فلا علاقة لها به. إن الله تعالى يقيم هنا الحجة عليهم بقوله إنه بدّل خوفهم أمنًا، وكيف يكون حجة عليهم ما لم يكن قد حدث بعدُ؟

خلاصة الكلام، إن هذه الآية تشير -على ما يبدو- إلى نبوءة إبراهيم عليه السلام عن ظهور النبي ﷺ، وليس إلى رحلات الشتاء والصيف فحسب. فإننا نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ..... رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم: ٣٦-٣٨).

لقد قام إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء عند رفع قواعد البيت، وقد سأل هنا ربه شيئين لهم: الأمن والرزق، ثم بيّن كيف يريد لهم الرزق، فقال لا أريد أن يتيسر لهم الأمن والرزق بقوة الحكم والسيف. لا شك أن الدول ترسي الأمن بالقوة وتجلب الأموال من الناس، ولكني لا أريد لهم الأمن ولا الرزق بهذا الطريق، بل أسألك يا

رب أن تجعل أفئدة من الناس تميل إليهم، فيتيسر لهم الأمن والرزق حبًّا واحترامًا لهم، لا بقوة الحكم والسيف.

كم هي شديدة هذه الشروط التي وضعها إبراهيم عليه السلام في دعائه! إنما يماثل دعاؤه أن يذهب أحد إلى البرية ويقول: يا رب، أَنْزِلِ المطرَ خلال نصف ساعة، ثم لا تجعله ينزل إلا حولي، ثم تنبت به الشجر حالاً. لقد أسكن إبراهيم عليه السلام بعضًا من ذريته في البرية، ومع ذلك يدعو الله تعالى أن يهيئ لهم الأمن. انظرْ أين يطلب لهم الأمن؟ إنه يطلب لهم الأمن في البرية التي يمكن أن تأتيهم فيها ذئاب وتفترسهم، أو يغير عليهم اللصوص وينهبوهم. ثم يطلب لهم الرزق، وأين؟ في واد غير ذي زرع! وليس هذا فحسب، بل يشترط أن لا يتوافر لهم الرزق والأمن بقوة السيف والسلطة، بل يجعلُ الله قلوبَ الناس تميل إليهم فلا يبرحوا يخدمونهم من تلقاء أنفسهم مدفوعين بمشاعر الحب والاحترام.

ثم يَعِدُ إبراهيم عليه السلام ربَّه سبحانه وتعالى مقابل هذين السؤالين بأمرين بالنسبة إلى ذريته: أحدهما أنهم سيظلون عاكفين في مكة، والآخر أنهم لن يبرحوا يعبدون الله تعالى هنالك عبادة توحيد على الدوام. وإلى هذا الدعاء الإبراهيمي قد أشار الله تعالى بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.. أي يا أهل مكة: لقد أنجزنا لكم وعدنا الذي قطعناه مع إبراهيم، والآن من واجبكم أن تفوا بعهدكم الذي عهد به جدُّكم نيابةً عنكم، وهو أنكم ستقيمون في مكة وتظلون مشغولين هنالك في عبادة الله تعالى عبادة توحيد. إننا لم نأخذ هذا العهد من إبراهيم و لم نقل له إنك تسألنا سؤالين فنطالبك بطلبيْن، بل إن إبراهيم قد فعل هذا من عند نفسه، فجدُّكم هو الذي عقد معنا هذه الصفقة، لذا فيجب أن تكونوا أكثر احتراما لها. لقد أدينا الواجب الذي جعله إبراهيم في ذمتنا. لقد طلب منا أن نهيئ لذريته الرزق في واد غير ذي زرع، ففعلْنا. لقد سألنا أن نهيئ لهم الأمن

في هذا المكان المخوف، فأَمَّنَّا لهم الأمن هنالك. لقد طلب منا أن نزودهم بالرزق والأمن بقوة الحب لا بقوة السيف، فجلعنا أفئدة من الناس تهوي إليهم، مما ضمن لهم الرزق والأمن. أفليس من واجبكم الآن أن تفوا بوعدكم الذي وعد به جدُّكم نيابةً عنكم بأنكم ستسكنون في هذا المكان وتعبدون الله وحده هنالك. لقد وفّينا بوعدنا منذ زمان، ولكنكم لا تبرحون تشركون بالله منذ آلاف السنين. وإننا لم نعاقبكم على الشرك إذ كان بإمكانكم أن تقولوا كيف نعاقَب و لم تأتنا أي تعاليم أو شريعة، أما الآن فقد أرسلنا إليكم محمدا ﷺ الذي يدعوكم إلى الله الأحد، ولكنكم، أيها الظالمون، لا ترجعون إليه ﷻ.